الفصل الرابع

من أسرار المغايرة
في نسق الفاصلة القرآنية

لا أحسب أن فنًّا من فنون البلاغة تعرض لخلل الرأي عند تطبيقه على النظم الكريم ، كما تعرَّض له السجع ، فمِن مغال في رفضه ، تنزيهًا للقرآن عن شائبة تكلف ، أو إجحاف بالمعنى ، ومن مُفرطٍ في القول باحتفاء القرآن به ، لدرجة أن يغير مواقع الألفاظ وهيئاتها ، ويعمد إلى الزيادة والنقص فيها لتحقيق هذا المطلب .

وبين المغالاة في الرفض ، والجموح في الإثبات ، يقع إعجاز النظم الحكيم . هذا الإعجاز الذي يتجلى في المواءمة الدقيقة بين جمال الشكل والمضمون ، فإذا نظرت إلى ما فيه من تناسب الفصول والمقاطع ، خِلْت أنه يعمد إليه ويتوخَّاه ، وإذا تأملت المعاني والأغراض وجدت أنه أحكم نسق الألفاظ ، وفقًا لتواثب المعاني وحركتها في الأذهان ، فمن أي جانب نظرت وقعت على سر من أسرار الإعجاز .

والبحث يعالج جموح القول بالمغايرة في نسق الألفاظ رَعْيًا للتناسب ، ويتتبع أبرز شواهده في الذكر الحكيم ، بحثًا عما وراءها من أسرار تتعلق بمعاني الكلام ومراميه ، دون التَّهْوين من شأن هذا التناسب ، وأثره في استمالة الأسماع والقلوب ، ذلك أن تمام التحدي في لغة شاعرة أن يجتمع في النظم المُعجِز حُسْن وَقْع المعنى في النفس ، وجمال الإيقاع في السمع .

ولنا في الفاصلة وقفات أُخَر ، بحثًا عن أسرار المغايرة في الصِّيغ ، وما يقع فيها من إيجاز وإطناب . والله أسأل أن يوفقني إلى إتمام ما بدأته ، ويعينني على فهم أسرار كتابه .

توطئــة :

من عجب أن يزعم زاعم أن القرآن يقصد إلى المغايرة في نظمه بالتقديم والتأخير رعاية للفاصلة ، أو حفاظًا على السجع ، في الوقت الذي يرى فيه النقاد ضرورة ائتلاف اللفظ والوزن في الشعر ، ويعيبون منه ما خرج على غير النسق المعهود في ترتيب الكلام لتصحيح الوزن ، يقول قدامة في كتابه « نقد الشعر » تحت عنوان « ائتلاف اللفظ والوزن » : « وهو أن تكون الأسماء والأفْعَال في الشعر مستقيمة كما بنيت ، لم يضطر الأمر في الوزن إلى نقضها عن البنية بالزيادة والنقصان منها ، وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال المؤلفة منها ، وهي الأقوال ، على ترتيب ونظام لم يضطر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه ، ولا إلى تقديم ما يجب تأخيره منها »[1] .

فإذا كان التقديم والتأخير لتصحيح الوزن عيبًا في الشعر ، وهو أمس حاجة إلى التساهل ، بحكم ما فيه من التزام الأوزان والقوافي ، فإن القول به مراعاة للفاصلة أعيب ، لما هو مقرر في عرف هذا اللسان من أنه يباح في النظم ما لا يباح في النثر ؛ لأن الناظم محكوم بقيدين : الوزن والقافية ، والناثر محكوم بقيد القافية وحده ، وحتى هذا القيد بإمكانه الخروج عنه بتنويع القوافي في سجعه .

إننا لو نظرنا إلى القرآن على أنه نص أدبي نثري ، وأجرينا عليه قواعد النقد العربي ، ومنها هذا الأصل الذي أشار إليه قدامة لحكمنا عليه بعدم تمكن فواصله ؛ لاضطراره إلى التقديم والتأخير حفاظًا عليها طبقًا لهذا الزعم ، فما بالك بنص معجز؟!

---

(١) نقد الشعر ص ١٦٥ .

لقد استهجن الزمخشري مثل هذا القول فيما نقله السيوطي عن الكشاف القديم : « لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها ، إلا مع بقاء المعاني على سردها ، على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه ، فأما أن تُهْمَل المعاني ويُهْتَم بتحسين اللفظ وحده ، غير منظور إلى مؤداه ، فليس من قبيل البلاغة » [1] .

وبالرغم من أن السيوطي نقل هذا عن الكشاف ، فإنه نقل في مقابله عن شمس الدين بن الصائغ نصًّا طويلاً ، يستدل فيه على أن القرآن يرتكب مخالفة الأصول مراعاة للتناسب بين الفواصل ، وأحصى من ذلك نيفًا وأربعين موضعًا ، ثمانية منها قدم فيها ما حقه التأخير [2] .

ثم توسع المفسرون حتى أحالوا معظم التقديم في الفواصل إلى هذا الغرض وحده ، وبمثله قال بعض أهل البيان ، حتى إن ابن الأثير لم يجد حرجًا في تغيير السبك ، ومخالفة الأصل في ترتيب الألفاظ ، من أجل حسن النظم السجعي ، فقال ردًّا على الزمخشري ، الذي ذهب إلى أن تقديم المفعول للاختصاص في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥)، قال ابن الأثير : « فإنه لم يقدم المفعول فيه للاختصاص ، وإنما قدم لمكان نظم الكلام ، لأنه لو قال : نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ فجاء بعد ذلك قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وذلك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون ، ولو قال : نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال الحسن » [3] .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/١٠٥ .
(٢) المصدر السابق ٢/٩٩ .
(٣) المثل السائر ٢/٢١٢ .

إن يقيننا بجمال التوافق في المقاطع وأثره في استمالة الأسماع والقلوب لا يحملنا على قبول القول بأن «لهذه الموسيقية أثرها في النفس ، وأسلوب القرآن فيه هذه الموسيقى ، ومن أجلها حدث في نظم الآي ما يجعل هذه المناسبة أمرًا مرعيًّا» [1] ، فلا شك أن هذه المناسبة أمر مرعيّ ، لكن تغيير نظم الآي من أجلها ، إنما هو ضرب من الضرورات نجلّ القرآن عن مثله .

وإذا كان الفراء من قبل حاول أن يربط بين مراعاة الفواصل في القرآن وتناسب القوافي في الشعر ، واستباح تغيير النظم في رءوس الآي لتحقيق هذا التناسب ، حتى أجاز العدول عن الواحد إلى التثنية في قوله تعالى : ﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ** ﴾ ، على أن المراد جنة واحدة وعدل عنه لمشاكلة رءوس الآي ، فإنه قد وجد من تصدى له وقسا في الرد عليه على ما نقله السيوطي : «وقد أنكر ذلك ابن قتيبة وأغلظ فيه ، وقال : إنما يجوز في رءوس الآي زيادة هاء السكت ، أو الألف ، أو حذف همز ، أو حرف ، فأما أن يكون الله وعد بجنتين فتجعلهما جنة واحدة لأجل رءوس الآي معاذ الله» [2] .

وأعجب من رأى الفراء في استباحته تغيير النظم للمشاكلة بين المقاطع ، تفسير الدكتور محمد زغلول سلام ، ذلك بأنه ربط بين أوزان القرآن وأوزان الشعر ، وكأن الفراء يعيد إلى الأذهان ما تنبه إليه العرب قديمًا من المقارنة بين وزن القرآن ووزن الشعر . يقول : «وقديمًا تنبه العرب إلى وزن القرآن فقارنوه بوزن الشعر ، وإيقاع سجع الكهان ، ولكن هذه الملاحظات سكتت لسبب أو لآخر ، ولعل هذا السكوت عن البحث في نظم القرآن من هذه الناحية يرجع إلى انصراف الناس إلى المعاني ، وما تحمل من تشريع وعقيدة ، وهو جل اهتمامهم في ذلك الوقت ، ومهما يكن من شيء فالجديد في كتاب الفراء ، والجدير بالاهتمام أنه لاحظ هذا النسق الصوتي ، وحاول أن يتتبعه ، ونراه في ملاحظاته التي أوردها مدركًا تمامًا لوزن القرآن ، مدركًا الغاية التي يعمد إليها

---

(١) من بلاغة القرآن ص ٨٧ .

(٢) الإتقان ٢/١٠٠ .

في التزام وزن بعينه ، وهو الترابط بين الكلمات وانسجام النغم وتوافق الفواصل في أواخر الآيات . وإذ تسترعي انتباهه هذه الظاهرة يحاول أن يضبطها ويقارنها بما عرف عند العرب من أوزان الشعر ، وهو إذ يحاول أن يقارن بين وزن الشعر ووزن القرآن لا يذهب بعيدًا ، بل يريد أن يقول : إن للقرآن ما للشعر والكلام الموزون من صفات . ومن هذه الاعتبارات المتصلة بالنظم تجاوب الكلمات مع وزن الآية ومراعاة رءوس الآيات»[1] .

لا أعرف أن الفراء كان يقارن بين وزن القرآن ووزن الشعر ، وإن كان يرى أنه يستباح في رءوس الآي ما لا يستباح في غيرها ، كما يستباح في قوافي الشعر ما لا يستباح في حشوه ، وتلك خاصية تتعلق بالفواصل وحدها دون سائر الآي .

ولا أعرف أن الفراء علل عدول القرآن عن لفظة إلى أخرى لاستقامة الوزن في غير رءوس الآي ، حتى يقال إنه كان «في ملاحظاته التي أوردها مدركًا تمامًا لوزن القرآن ، مدركًا للغاية التي يعمد إليها في التزام وزن بعينه» ، بل كان تعبيره فيما يرى أنه جرى على غير الأصل «لمشاكلة رءوس الآي» كما تراه في سور : الفجر[2] ، والشمس[3] ، والضحى[4] ، والعلق[5] ، والزلزلة[6] ، والعاديات[7] . وحين يستشهد بوجود مثل هذه المغايرة في الشعر ، كان يقابل بين القوافي والفواصل ، لا بين وزن ووزن . مثال ذلك ما قاله في تثنية الجنة من قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ : «وقد يكون في العربية جنة تثنيها العرب في أشعارها . أنشدني بعضهم :

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ قَطَعْتُهُ بِالسَّمْتِ لاَ بِالسَّمْتَيْنِ

---

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص ٦١ .
(٢) معاني القرآن ٢٦٠/٣ .
(٣) المصدر السابق ٢٦٧/٣.
(٤) المصدر السابق ٢٧٣/٣، ٢٧٤ .
(٥) المصدر السابق ٢٧٨/٣.
(٦) المصدر السابق ٢٨٣/٣ .
(٧) المصدر السابق ٢٨٦/٣.

يريد : مهمهًا وسمتًا واحدًا . وأنشدني آخر :

يَسْعَى بِكَبْدَاءَ وَلَهْذَمَيْن قَدْ جَعَلَ الْأَرْطَاةَ جَنَّتَيْن

وذلك أن الشعر له قواف يقيمها الزيادة والنقصان ، فيحتمل ما لا يحتمله الكلام» [1] .

بل لا أعرف أن العرب حين نعتوا القرآن بالشعر قصدوا إلى التشابه بينهما في الوزن، وإنما كان ذلك إقرارًا منهم بسمو بيانه، وجمال إيقاعه وتحدر نظمه، لأن هذه صفة الشعر عندهم ، كما كان وصفه بالسحر دليلاً على قوة تأثيره في نفوسهم ، وعجزهم عن محاكاته ، فهو هذيان مهزوم ، وهَوَسٌ محموم ، يقول أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي : « للشعر أوزانه وقوافيه التي تمنع أن ينتسب إليها القرآن ، والذين قالوا عن رسول الله ﴿ **شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ** ﴾ لم يقولوا ذلك عن اعتقاد وإيقان، فهم يعرفون ضروب الشعر وأوزانه، إنما غلبتهم العصبية فطفقوا يهرفون بما لا يوقنون ، فمرة ينسبونه للكهانة ، وثانية للسحر ، وثالثة للشعر ، لا لأنهم يعتقدون ذلك ، بل ليوحوا إلى العامة بما يغرس بذور الشك في نفوسهم فلا يؤمنون»[2] .

لا أحسب أن فَنًّا من فنون البلاغة تعرض عند تطبيقه على النظم القرآني لخطل الرأي كما تعرض له السجع ، بين مفرط يغالي في رفضه ؛ تنزيهًا للقرآن عن شائبة تكلف واستكراه للألفاظ كالباقلاني ، ومفرِّط يبالغ في احتفاء القرآن به لدرجة يدَّعي فيها إكراه المعاني على ارتداء ما لا يناسبها من الألفاظ، حتى زُعم أن القرآن يختار من الأعداد ما يشاكل رءوس الآي وإن خالفت حقيقة المعدود ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ** ﴾ (الحاقة:١٧) وقوله : ﴿ **عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ** ﴾ (المدثر:٣٠) ، فلا الحاملون للعرش ثمانية ، ولا خزنة جهنم تسعة عشر ، ولكنها السجعة التي قبضت بزمام النظم[3] . تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا .

---

(١) معاني القرآن ١١٨/٣ .

(٢) البيان القرآني ص ١٦٠ .

(٣) أثر القرآن في تطور النقد العربي نقلاً عن «نولدكه» ص ٣٧٤ وما بعدها .

نحن نقول مع الأستاذ علي الجندي : « لا ننكر ما للسجع والازدواج من أجراس شاجية ، تكسب الكلام أناقة وحلاوة ، وتجعل له وقعًا نديًّا على السمع والقلب ، ولكنا لا نستطيع بحال أن ننزله هذه المنزلة الخطيرة التي يستباح معها الخطأ في الكلام ، والتي تسحب ذيل الإغفال والإهمال على كل غرض آخر ، وبخاصة حينما يتصل الأمر بكلام الله وكلام رسوله »[1] .

هذه هي النظرة المعتدلة إلى فواصل القرآن ، « فالبلاغة من حيث هي فن القول لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه ، ولا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها ، كما لا تعتد بألفاظ جميلة تضيع المعنى أو تجور عليه ليسلم لها زخرف بديعي . وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية ، بدلالتها المعنوية المرهفة ، ونسقها الفريد في إيقاعها الباهر ، وبين ما تقدمه الصنعة البديعية من زخرف لفظي ، يكره الكلمات على أن تجيء في غير مواضعها البيانية »[2] .

وبهذه النظرة المعتدلة نرى أن تناسب الفواصل مقصد من مقاصد النظم ، وهو من حِلَى القرآن وروافد تأثيره ، لكننا ننزه القرآن عن أن يقهر المعاني ـ في سبيل تحقيق هذه الغاية ـ على ارتداء ما لا يناسبها عن الألفاظ ، أو يحدث في بناء العبارة ما يجعل توافد المعاني على الأذهان مخالفًا لترتيبها في الجنان .

وقد حاولت جاهدًا أن أتسمع لهمس السياق ، وأنعم النظر فيما قيل فيه بمخالفة الأصل في الترتيب لتناسب المقاطع ، بحثًا عن أغراض النظم وراء هذه المخالفة ، هادفًا ـ دون شطط أو تكلف ـ إلى الكشف عما صاحب موسيقى الفواصل من أسرار البيان . بيقين منا أن كلام الله المعجز هو المثل الأعلى للنظم الذي يتعانق فيه حسن اللفظ وسمو المعنى .

---

(١) صور البديع ـ فن الأسجاع ص ٩٩ .

(٢) الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٥٨ .

الترتيب بين المتعاطفات

من المواطن التي قيل فيها إن القرآن غاير الترتيب بين المتعاطفات لتناسب الفواصل ، تقديم الأرض على السماء ، مخالفة للأصل من تقديم الأشرف على ما هو دونه ، وقد راعى القرآن الأصل في معظم المواطن التي اقترنت فيها السماء والأرض ، فقدم السماء ، إلا بعض المواضع القليلة التي تقدمت فيها الأرض ، فقيل إن تقديمها لغرض تحقيق السجع . يقول المرحوم الشيخ عبد الرحمن تاج :« ورد في القرآن عشرات المرات ذكر الأرض مقرونة بالسماء مفردة ومجموعة ، وفي هذه المرات جميعها نجد أن السماء أو السموات مقدمة على الأرض إلا في مواضع قليلة جدًّا قدم فيها ذكر الأرض ، ويتجلى في موضعين ؛ وذلك من أجل تناسب الفواصل . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ** ﴾ (طه:٤،٥)؛ فإن فواصل السورة على الألف ، ومراعاة للتناسب بين هذه الفواصل قدمت الأرض على السموات ، التي وصفت بوصف ﴿ **ٱلْعُلَى** ﴾ المختوم بالألف .

ولذلك لما انتهى هذا الاقتضاء وجاء الجمع مرة أخرى بين الأرض والسماء في الآية التالية للآيات السابقة مباشرة عاد الاقتران إلى أصله ، فقدمت السموات على الأرض ﴿ **لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ** ﴾ (طه:٦) .

ومن ذلك أيضًا قوله سبحانه : ﴿ **رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ** ﴾ (إبراهيم:٣٨،٣٩) .

فقد قدمت الأرض على السماء في هذه الآية ، لأنه أريد تناسب الفاصلة فيها مع الفواصل الأخرى المبنية على الهمزة »[1] .

وحين نتتبع ورود السماء والأرض معطوفة إحداهما على الأخرى في القرآن الكريم نجد ما يربو على مائتي موضع تقدمت فيها السماء على الأرض ، جريًا

---

(١) الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية ص ١١ .

على الأصل من تقديم الأشرف ، والأدل على قدرته تعالى ، في مجال الامتنان بعظيم خلقه ، وعجائب صنعه ، وتقدمت الأرض على السماء في ثلاثة عشر موضعًا ليس من بينها سوى موضعين وقعت السماء فيهما فاصلة ، وموضع واحد وقعت فيه موطئة للفاصلة ، فإذا اعتددنا بمثل هذا القول الذي يعتبر التقديم فيها لمجرد رعاية الفواصل ، فإن عشرة مواضع تقدمت فيها الأرض وليست فاصلة يصبح تقديمها عاريًا من الفائدة ، هو ما لا يصح وقوعه بحال في بيان معجز .

على أن أحد الموضعين اللذين وقعت فيهما السماء فاصلة جاءت فاصلته بين فواصل متغايرة الروي والوزن ، وذلك قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٢-٦) فالفواصل : ﴿ ٱلۡإِنجِيلَ ﴾ ﴿ ٱنتِقَامٍ ﴾ ﴿ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ لم تتفق فيها اثنتان في حرف الروي ، وتغاير الردف فيها بالواو والياء والألف . وليس مثل هذا مما يتغير نظم الكلام من أجله .

إن القصور في فهم أسرار التقديم والتأخير يرجع معظمه إلى حصر أسباب التقدم في الزمان والشرف ، فإذا لم يكن المتقدم أسبق زمانًا أو أعلى رتبة فقد مرجحات تقديمه ، فإذا وقع فاصلة كانت هي الغرض . مع أن أسباب التقديم متعددة ، أشار إليها السهيلي بتركيز شديد في قوله : « ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقدم المعاني في الجنان ، والمعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء : إما بالزمان ، وإما بالطبع ، وإما بالرتبة ، وإما بالسبب ، وإما بالفضل والكمال ، فإذا سبق معنى من المعاني إلى الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب الخمسة أو بأكثرها ، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق . نعم وربما

كان ترتيب الألفاظ بحسب الخفة والثقل ، لا بحسب المعنى ، كقولهم : ربيعة ومضر ، وكان تقديم مضر أولى من جهة الفضل ، ولكنهم آثروا الخفة لأنك لو قدمت (مضر) في اللفظ كثرت الحركات وتوالت ، فلما أخرت وقف عليها بالسكون» [1] .

فهو يذكر خمسة أسباب للترتيب بحسب المعنى ، وسببًا لفظيًّا جرى عليه لسان العرب في الميل إلى خفة اللفظ وسهولة جريانه على الألسنة .

ثم إن هذه الأسباب تختلف في ذاتها طبقًا لمواقعها ودواعي السياق ؛ فمثلاً التقدم في الرتبة قد ينظر فيه إلى الفضل والشرف فيقدم الأعلى ، وقد ينظر فيه إلى سياقه فيقدم الأدنى إذا كان بسياقه أقرب وأعلق ، وبهذا فسر السهيلي تقديم السماء على الأرض تارة ، وتقديم الأرض أخرى ، فقال : «وأما تقديم السماء على الأرض فبالرتبة أيضًا والفضل والشرف ، وأما تقديم الأرض من قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ (يونس:٦١) فبالرتبة ، لأنها منتظمة بذكر ما هي أقرب إليه ، وهم المخاطبون بقوله : ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ (يونس:٦١) فاقتضى حسن النظم تقديمها مترتبة في الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها» [2] .

ثم إن التقديم بالفضل والشرف قد يبدأ فيه بالأفضل ، وقد يعكس على سبيل الترقي من الفاضل إلى الأفضل ، وقد بين وجه ذلك ابن المنير : «وجه البداءة بالأفضل والاعتناء بالأهم ، فقدم ، ووجه عكس هذا الترقي من الأدنى إلى الأعلى . ومنه قوله :

بَهَالِيلُ مِنْهُمْ جَعْفَرٌ وَابْنُ أُمِّهِ عَلَيٌّ وَمِنْهُمْ أَحْمَدُ الْمُتَخَيَّرُ[3] »

هذا الترقي من الأدنى إلى الأعلى الذي أوجب تقدم الأرض في قوله تعالى : ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ في سورة آل عمران وما شابهها

---

(١) نتائج الفكر ص ٢٦٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٠ .

(٣) الإنصاف ٣٣٤/٤ .

من سورة إبراهيم ، وهما اللتان وقعت فيهما السماء فاصلة ، لأن العلم بما خفي في الأرض دون العلم بما خفي في السماء لعظم خلقها وسعتها ، فبدأ بنفي فوات شيء عن علمه من أسرار الأرض ، مترقيًا إلى شمول علمه بما دق من أسرار السماء ، كما ترقى من النهي عن الأدنى إلى النهي عن الأعلى في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ (الإسراء:٢٣)، وكما ترقى في نفي إعجاز الكافرين له في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (العنكبوت:٢٢)، فهم لا يستطيعون الهرب في الأرض الضيقة الصغيرة ، ولا في السماء العظيمة المتسعة ، وليست السماء هنا فاصلة ، حتى يقال إن التقديم فيه رَعْي للتناسب . فإذا ما صحب هذا الغرض توافق المقاطع وتآخي أجراسها كان ذلك حسنًا على حسن . وقد مس ذلك العلامة أبو السعود مسًّا رقيقًا في كشفه عن سر تقديم الأرض في آية إبراهيم ، فقال : « وتقديم الأرض على السماء مع توسيط (لا) بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا »[1] ، مشيرًا إلى أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين ورد على لسانه هذا الدعاء واكب ترتيب اللفظ على لسانه ترتيب المعاني في جنانه ، بادئًا بالأرض ، وهي ما خفي من علمها على الإنسان دون ما خفي عليه من علم السماء .

أما آية طه التي احتج بها الشيخ تاج فقد وقع البيضاوي على سر دقيق لتقديم الأرض يكشف عنه قوله : « تفخيم لشأن المنزّل بغرض تعظيم المنزِّل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل ، فبدأ بخلق الأرض والسموات وهي أصول العالم ، وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس ، وأظهر عنده من السموات »[2].

نظر ـ رحمه الله ـ في ترتيب المعاني وصورها في الألفاظ إلى حركة العقل في توجهه لإدراك حقائق الخلق ، توصلاً منها إلى الخالق ، فهو يدرك ظواهر الأشياء أولا ، ثم ينفذ منها إلى خوافيها ، لذا كان نسق الآيات متجاوبًا مع هذه

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/٥٣ .

(٢) تفسير البيضاوي ٦/١٩٠.

الحركة العقلية ، فقدم القرآن بين يدي تعظيم المنزل صفات الأفعال على صفات الذات ، فبدأ بخلق الأرض والسموات ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾ والخلق صفة فعل ، وهي تابعة في الوجود لصفة الذات ، وهي الرحمة التي بها كان الخلق ، ثم جاء قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ربطا للمحسوس بالمعقول ، واهتداء بالشاهد على الغائب ، وبالأثر على المؤثر ، ثم كان البدء بالأرض في صفة الخلق هو الأحق ، لقربها من الإنسان ، وظهور العلم بها ، انطلاقًا إلى العلم بما هو أعظم وأخفى ، فليس الترتيب هنا بين الأرض والسموات ترتيب وجود ، ولا ترتيب تعظيم ، وإنما هو مسايرة لحركة العقل في إدراك حقائق الأشياء حسب قربها وظهورها ، بغية الاستدلال بالقريب الأظهر على البعيد الأخفى .

وقد جاء تعليق الشهاب غاية في الدقة على قول البيضاوي : « على الترتيب الذي هو عند العقل » قال الشهاب : « لأنه يدرك أفعاله أولاً ، ثم يستدل بها على سائر صفاته ، ولذا قدم الخلق ، وثنى بالرحمة التي تتناول الموجودات قبل كل شيء ، لأن الخلق منها ، وليس الترتيب بحسب الوجود ، فإنه بعكسه ، ولذا قدم الأرض » [1] .

على أنني ألمح في تقديم الأرض بين يدي مواساة الله لنبيه ، وإزالة ما سبَّبه له إعراض قومه من آلام وأحزان ، كما ينبئ عنه قوله تعالى : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ ـ ألمح الارتباط بين الشقاء وموطنه وهو الأرض ، فكان البدء به هو الأليق ببلاغة النظم ، وذلك هو الترتيب في الذكر الذي أشار إليه السهيلي فيما نقلناه عنه .

والعَلَم في الاستشهاد بالتقديم لمراعاة الفواصل قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ (طه:٧٠) وهو ما اعتبره المثبتون للسجع في القرآن دليلاً على أن تناسب الفواصل مقصد من المقاصد التي يعمد إليها القرآن ، ويغير من أجلها نظم الكلام ، بدليل أنه الموضع

---

(١) حاشية الشهاب ١٩٠/٦ .

الوحيد الذي قدم فيه هارون على موسى تجاوبًا مع إيقاع الفواصل المبنية على الألف . يقول أبو بكر الرازي في مسائله : « فإن قيل : كيف قدم هارون على موسى ـ عليهما السلام ـ في قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ وهارون كان وزيراً لموسى ـ عليه السلام ـ وتبعا له . قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ ؟

قلنا إنما قدمه ليقع موسى مؤخراً في اللفظ فيناسب الفواصل ، أعني رءوس الآيات » [1] .

وأضاف الخطيب الإسكافي[2] الحذف إلى التقديم في هذه الآية لتحقيق هذا التناسب ، فلم يذكر ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ كما جاء في سورتي الأعراف والشعراء مراعاة للفواصل كذلك ، وهو ما تردد في كتب المفسرين من المتقدمين والمتأخرين . يقول صاحب المنار : « فإن قيل : ولِمَ لَمْ يذكر في سورة طه إيمانهم برب العالمين؟ ولم أخر فيها موسى وقدم اسم هارون؟ فالجواب عنهما أن سبب ذلك مراعاة فواصل السور ، بما لا يعارض غيره مما ورد في غيرها »[3].

إن القول بحذف ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ من سورة طه لمجرد التشاكل إهمال لما بنيت عليه هذه السورة من الإيجاز في تصوير هذا الحدث ، كما يدل عليه ترتب سجود السحرة وإيمانهم على أمر الله لموسى بالإلقاء ، دون ذكر إلقاء موسى عصاه ، وهو ما تفردت به سورة طه .

أما تقديم هارون على موسى فقد تكاثرت فيه التعليلات ، كان أوهاها ما ردّ به الباقلاني على القائلين بالسجع في القرآن ، وهو أن « إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة ، وتتبين فيه البلاغة »[4] ، لأنه يرد عليه أن مخالفة الترتيب تتم على

---

(١) مسائل الرازي ص ٢٢٠ .

(٢) ينظر درة التنزيل ص ١٧٥ .

(٣) تفسير المنار ٦١/٩ .

(٤) إعجاز القرآن ص ٦١ .

وجهها لو وقعت في إحدى السورتين : الأعراف أو الشعراء ، لمغايرتها لفواصل السورة . أما أن تكون المخالفة في سورة طه التي تتحقق بها مراعاة الفواصل ، فإن هذا لا يسقط حجة المعارضين .

ومثل هذا يرد كذلك على ما قاله أبو السعود ، والبيضاوي ، وغيرهما ، من أن تقديم هارون لكبر سنه ، أو لدفع وهم أن يكون المقصود برب موسى لو قدم هو فرعون لسابق تربيته له ، ويكون ذكر هارون على سبيل الاستتباع[1] . فيقال لهم : ولِمَ لَمْ يراع هذا في سورتي الأعراف والشعراء؟ وما الذي استدعى دفع هذا التوهم في هذا الموضع خاصة؟

وهذا نفسه يرد على ما ذهب إليه الحسناوي من أن هذا التقديم « يصور الحالة النفسية التي كان عليها السحرة لما ظهرت معجزة موسى ، فألقوا سجدًا يتلعثمون بالشهادة ، كحال العبد الذي فرح بلقاء راحلته بعد ضياعها فقال من شدة الفرح على ما جاء في صحيح مسلم : اللهم أنت عبدي وأنا ربك[2] ».

فلِمَ ظهر هذا التلعثم في سورة طه وحدها دون الموضعين الآخرين؟

اللهم إلا أن يقال : إن تصوير الحدث في سورة طه بما تضمنه من اختفاء موسى بعد أن أمره الله تعالى بالإلقاء ، وترتيب سجودهم وإيمانهم وقولهم هذا على الأمر بالإلقاء ، وكأن المعركة بينهم وبين الله تعالى لا بينهم وبين موسى وما يوحيه من السرعة في حسم المعركة وشدة الهزيمة ، وهو ما تميزت به هذه السورة !!

ولكنه لم يقل هذا ولا شيئًا يبرر به هذه المغايرة . ولعلي أكون قد عضدت رأيه بما كان يجب أن يقوله .

ولعل أقرب الآراء إلى القبول ما ذكره الدكتور محمد أبو موسى معتمدًا على وحي السياق ، وهو أن بدء السحرة « بمن ليس أفضل دال على إظهار قوة الاقتناع بالحجة والإيمان بها ، وذلك لأن الآية لم تظهر على يد هارون ، ولم

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٦/٢٨، والبيضاوي ٦/٢٥١ .

(٢) الفاصلة القرآنية ص ١٢٠ .

يكن هو الغالب ، وليس في تقديم موسى الذي لقفت عصاه ما صنعوا شيء يلفت ، لأنه هو الأصل ، أما تقديم من لا دخل له في المعجزة التي عليها آمنوا فهو الأمر اللافت ، لأنه جاء على خلاف الأصل ، ويلاحظ أن سياق سورة طه فيه فضل عناية ببيان حفاوة السحرة بهذه المغالبة ، واحتشادهم لها احتشاداً جعل موسى ـ عليه السلام ـ يقول بعد ما جعلوا وعدهم يوم الزينة : ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾»[1].

وقد بدا لي رأي هو امتداد لما ذكره الدكتور أبو موسى وتوسيع لدائرة السياق ، تمتد فيه العناية من التركيز على احتشاد السحرة ومغالبتهم إلى إبراز دور هارون ومشاركته المؤثرة في الأحداث ، ليكون ترتيب ذكرهما على سبيل الترقي بعد أن ذكره في السورتين على سبيل التبعية .

أما لماذا كان فضل العناية والاهتمام بدور هارون في هذه السورة وحدها فهذا ما يفصح عنه السياق ، حيث جاء في دعاء موسى من هذه السورة : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ (طه:٢٩-٣٢) .

فهي السورة الوحيدة التي صرح فيها بهذه المشاركة ، وهي أقوى في إبراز دوره من قوله في سورة الشعراء ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴾ (الشعراء:١٣) ، وهي الوحيدة بين السور الثلاث التي طلب فيها من ربه أن يجعله وزيراً ، وقال في هذه السورة : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ (طه:٤٧) ، فأبرز بتثنية الرسول استقلال هارون ، في حين ظهرت تبعيته في إفراد الرسول من سورة الشعراء ، ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء:١٦) .

واستمراراً لإبراز استقلال هارون ومشاركته المؤثرة في الأحداث وصفه قوم فرعون بما وصفوا به موسى من السحر ﴿ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾ (طه:٦٣) فتوالت ضمائر التثنية لتؤكد مشاركة هارون لموسى في مجابهة القوم ، أما في سورتي

---

(١) الإعجاز البلاغي ص ١٩٩ .

الأعراف وطه ، فقد أفردوا موسى ـ عليه السلام ـ بوصف السحر ، وتوارت شخصية هارون تمامًا فجاء في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (الأعراف:١٠٩،١١٠) ، وفي سورة الشعراء : ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (الشعراء:٣٤،٣٥) .

كل ذلك جعل من تقديم هارون في سورة طه إبرازًا لدوره ، وتركيزًا على مشاركته في الأحداث ، ثم جاء موسى بعده على سبيل الترقي من البدء بالأفضل فالأفضل ،بخلاف ذكره بعد موسى في مثل سياقاته فإنه يوحي بتبعيته ، ويبدو في دور المساند لا المشارك .

ومما قيل بالتقديم والتأخير فيه مراعاة للتناسب قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥)؛ بناء على أن العبادة تتطلب الاستعانة بالمعبود للتوفيق إليها ، أو كما قال السيد الشريف : «العبادة لما كانت تقربهم إلى مولاهم بأفعالهم ، والاستعانة طلب لفعل المولى ، كان تقديمها على العبادة أولى» [(١)]، فوجد البعض في تناسب الفواصل السبب في العدول عن الأصل ، بل عدوا هذه الآية دليلاً على قصد القرآن إلى السجع وتغيير نسق الكلام من أجله[(٢)].

كان الزمخشري من أوائل من تنبه إلى أن التقديم وراءه سر يتعلق بأغراض النظم « فإن قلت : لم قدمت العبادة على الاستعانة؟ قلت : لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة عليها » [(٣)] .

وأضاف أبو السعود : « أن العبادة من حقوق الله تعالى والاستعانة من حقوق المتقين[(٤)] » فالتقديم على رأي الزمخشري من تقديم العلة على المعلول ، وعلى رأي أبي السعود من تقديم الأشرف . وذهب البيضاوي إلى أن ذكر

---

(١) حاشية السيد الشريف على الكشاف ٦٤/١ .

(٢) انظر المثل السائر ٢١٢/٢، والبرهان ٦٣/١ .

(٣) الكشاف ٦٥/١ .

(٤) تفسير أبي السعود ١٧/١ .

الاستعانة بعد العبادة من باب التكميل والاحتراس ، فقال : « لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم ذلك تبجحًا واعتدادًا منه بما يصدر عنه ، فعقبه بقوله ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ليدل على أن العبادة أيضًا مما لا يتم ولا يستتب إلا بمعونة منه وتوفيق[1] ».

فجاء تقديم العبادة على الاستعانة ليوافق ترتيب الألفاظ ترتيب معانيها ، فيرشد الترتيب الذِّكْرِي للترتيب الخارجي[2] .

هذا قليل من كثير في بيان سر التقديم ، مما حفلت به كتب التفسير ، وهو ـ في نظري ـ إغراق لا يخلو من التكلف ، وهو إلى جدل المناطقة أقرب منه إلى ذوق أهل البيان . ذلك أن تقديم المفعول على فعلي العبادة والاستعانة بدلالته على الحصر ، يجعل تخصيص الاستعانة بالله وحده أرقى درجة من تخصيصه بالعبادة ، لأن الأولى تخلص من الشرك الظاهر ، والثانية تخلص من الشرك الخفي ، فكم من عابد يخلص لله العبادة ، لكنه لا يستطيع إخلاص الاستعانة به ، على ما تقضي به طبيعة التعجل في النفس البشرية ورغبتها في تحقيق ما تصبو إليه ، وما يصاحب ذلك من مشاعر القلق والخوف مما يدفع إلى الركون لغيره ـ سبحانه ـ في تحقيق أغراض النفس ، فكان حصر الاستعانة في الله وحده مرحلة من مراحل اليقين لا يصل إليها إلا صفوة المتقين ، وصار إخلاص العبادة هو السبيل إلى هذه الدرجة من الثقة بعون الله والاطمئنان إليه ، حتى لا يلوذ العابد في طلب حوائجه إلى غير مولاه . ولعل الخازن في أحد وجوهٍ ذَكَرها رمق هذا المعنى بقوله : « إن الاستعانة نوع تعبد ، فكأنه ذكر جملة العبادة أولاً ، ثم ذكر ما هو من تفاصيلها »[3] .

إن القول بأن « العبادة تقرب للخالق تعالى ، فهي أجدر بالتقديم في المناجاة ، وأما الاستعانة فهي لنفع المخلوق للتيسير عليه ، فناسب أن يقدم

---

(١) تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب ١٢٢/١ .

(٢) حاشية الشهاب ١٢٢/١ .

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل ١٧/١ .

المناجي ما هو من عزمه وصنعه على ما يسأله مما يعين على ذلك»[1] ، هذا القول يقيس العلاقة بين الله وخلقه بمقاييس العلاقات بين المخلوقين ؛ فيقدم العبد من العبادة ما يستحق به الإعانة . إن طلب العون من الله دعاء ، والدعاء قمة العبادة ، وتركه يستوجب العذاب ، وقد فسرت به العبادة[2] في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر:٦٠) وفي الحديث : (الدعاء هو العبادة)[3]، فدل عليه السلام بهذا الحصر على فضله وشرفه على سائر العبادات ، وعلى ذلك فالترتيب جاء في الآية على الأصل من عطف الخاص على العام .

ومن المواطن التي جعل فيها عكس الترتيب لرعاية الفاصلة ما نقله السيوطي عن ابن الصائغ « تقديم ما هو متأخر في الزمان نحو ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ (النجم:٢٥) ، ولولا مراعاة الفواصل لقدمت الأولى كقوله تعالى : ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ﴾ (القصص:٧٠) »[4] .

وبتتبع مواطن وقوع الأولى والآخرة مجموعين في صورة عطف بالواو ، نجد أن « الأولى » تقدمت على « الآخرة » في موضع واحد ، هو قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:٧٠) ، وهذا هو الأصل في الترتيب الوجودي لسبق زمن الدنيا على زمن الآخرة ، وهو النهج الذي سلكه النظم الحكيم في تقديم الدنيا على الآخرة في كل موطن اجتمعتا فيه ، أما تقديم الآخرة على الأولى فقد جاء في ثلاثة مواطن ، الأول قوله تعالى خطابًا للمشركين : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾

(١) التحرير والتنوير ١٨٩/١ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ٨٦/٤ .
(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .
(٤) الإتقان ٩٩/٢ .

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ (النجم:٢٣-٢٦) .

وتقديم الآخرة فيه على الأولى يتعانق مع سياقه أداء وغرضًا ، حيث يتسق التقديم في هذه الفاصلة مع التقديم في الفاصلتين قبلها ، الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (النجم:٢٣) وفيها قدم ﴿ مِّن رَّبِّهِمُ ﴾ على الفاعل ﴿ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ تنبيهًا على أن من شأن المربي الرحيم ألا يهدي من يربيه إلى غير ما ينفعه وينجيه ، والثانية : ﴿ أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ وفيها قدم الخبر ﴿ لِلْإِنسَـٰنِ ﴾ وهو بدلالته على التخصيص يحقق الغاية من الإنكار والتهكم بهذا المخلوق الذي يتجاوز قدره ، ويتصرف في خلق الله تصرف الخالق ، ويفتات على ربه ، فيختار لله أدنى الجنسين ويختص نفسه بأشرفهما . ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ ، ثم جاء تقديم الآخرة متوافقًا مع سياقه في الأداء ، ومحققًا الغرض في المبادرة برد أطماع هذا الإنسان الذي تجاوز في أمانيه وغلا ، فزعم أنه سيفلت في الآخرة من عذاب ربه بشفاعة أصنام عبدها من دون الله ، فلما كانت هذه الأمنية متعلقة بالآخرة قدمت ، مسارعة إلى قطع هذه الأماني وتكذيبها بحصر ملكيتها مع ملكية الدنيا في الله وحده ، وهو ما كشف عنه الألوسي في قوله :« وقدمت الآخرة اهتمامًا برد ما هو أهم أطماعهم عندهم من الفوز فيها ، ولذا أردف ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ وإقناطهم عما طمعوا به من شفاعة الملائكة عليهم السلام موجب لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق الأولوية »[1] .

والموطن الثاني الذي تقدمت فيه الآخرة على الأولى قوله تعالى حديثًا عن موسى وفرعون : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ

(١) روح المعاني ٢٧/٥٨ .

﴿ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ﴾ (النازعات:١٥-٢٥) .

الأظهر في تفسير الآخرة والأولى هنا ما روي عن ابن عباس ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير ومقاتل من أنهما كلمتا فرعون ﴿ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ و﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ ، وهو الوجه الذي قدمه الرازي في تفسيره ، ثم قال :« والمقصود التنبيه على أنه ما أخذه بكلمته الأولى في الحال ، بل أمهله أربعين سنة ، فلما ذكر الثانية أخذ بهما ، وفي هذا تنبيه على أنه تعالى يمهل ولا يهمل» [1] .

وبهذا تتقدم الآخرة تحقيقًا لغرض النظم في الإشارة إلى أن قول فرعون ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ هو السبب في إسراع الله بإنزال العقاب به ، كما يدل عليه حرف التعقيب ، إلى جانب الدلالة على أنها أشنع وأفظع من الأولى ، لتفاوت ما بين إنكار العلم بوجود إله غيره ، وبين تصريحه بالربوبية الموصوفة بغاية التعالي والتفرد .

أما الموطن الثالث : وهو قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴾ (الليل:٥-١٣) .

فقد جاء تقديم الآخرة فيه استجابة لما بنيت عليه السورة من التهديد والإنذار بسوء العاقبة لمن كذب وأعرض ، والتنكيل به في الآخرة ، وهو ما ينبئ عنه افتتاح السورة بالقسم ، وبدؤه بالليل الذي يخيم بظلامه على دنيا الناس ، تأكيدًا على اختلاف مساعي الناس وتفرقهم ، وما يترتب عليه من اختلاف جزائهم ، ولما كان الغرض هو إنذار المستهينين بعذاب الله ، المتمادين في ضلالهم ، كان تقديم الآخرة هو الأنسب بهذا السياق المنذر المتوعد ، لأنها زمن إنزال العقوبة

(١) تفسير الفخر الرازي ٤٤/٣١ .

بهم ، ولهذا أعقبها قوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ مقدما جزاء الأشقياء على جزاء الأتقياء ، مكتفيًا في جزائهم بإبعادهم عن النار ، على خلاف الغالب في القرآن من تقديم جزاء المؤمنين . مثل هذا السياق لا يفي بحق البلاغة فيه إلا تقديم الآخرة ، فإذا تحقق معه الانسجام الصوتي ، وتناسب الإيقاع في الفواصل ، فذلك ما لا يتم على هذا الوجه من الكمال في غير هذا النظم المعجز .

تقول الدكتورة بنت الشاطئ . : «ونلتفت إلى ملحظ بياني في الآية ، هو العدول عما هو مألوف من تقديم الأولى على الآخرة ، وليس التعلق برعاية الفاصلة هو الذي اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى ، وإنما اقتضاه المعنى في سياق البشرى والنذير ، إذ الآخرة هي دار القرار ، وكذلك قدمت الآخرة على الأولى في سياق البشرى للمصطفى بآية الضحى ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ كما قدمت الآخرة على الأولى في سياق الوعيد لفرعون ، إذ أدبر وتولى ، ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ بآية النازعات . وفي مثل هذا السياق من الوعيد تتقدم الآخرة على الأولى في آية الليل» [1] .

وهو كلام طيب لا يعيبه إلاقوله تعالى ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ إلى الآيات الثلاث ، إذ التقديم فيها أوجبته طبيعة أسلوب التفضيل ، الذي يلزم فيه تقديم المفضل على المفضل عليه ، وحديث البلاغة فيما تجيز قواعد اللغة تقديمه وتأخيره ، لا فيما يتعين تقديمه لأداء أصل المعنى .

ومما قيل فيه بتقديم المؤخر زمانًا للفاصلة ، قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ (النجم:٣٦،٣٧) ، فقدم موسى وهو متأخر وجودًا على إبراهيم ـ عليهما السلام ـ في حين جاء على الأصل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (الأعلى:١٨،١٩).

---

(١) التفسير البياني للقرآن ٢/١١٢ .

والقول بالتقديم لرعاية الفاصلة يتجاهل الفروق بين أغراض النظم ، واختلافات السياق ، فلو أن الغرض هو مراعاة الفواصل وحدها لقيل في سورة النجم : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ وفاء بحق الفواصل ، وهي متحدة في السورتين دون اللجوء إلى تغيير النسق بالتقديم والتأخير .

وحين نتأمل سياق الآيتين ، نجد أن آية الأعلى وقعت تقريراً لحقائق التوحيد والنبوة ، وما تبعها من المجازاة على الكفر والإيمان ، تأكيداً على أن هذه هي أصول الشرائع كلها ، وملتقى رسالات المرسلين ، يدلك على ذلك البدء بالتوكيد ، والعموم المفهوم من قوله ﴿ لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ قبل تخصيص صحف إبراهيم وموسى ، وتخصيصهما بالذكر لما أنهما الأشهر لدى العرب ومَنْ سَاكَنهم من أهل الكتاب ، فالخطاب هنا عام جرى فيه تقديم إبراهيم على الأصل في الترتيب الوجودي .

أما آية النجم فالخطاب فيها موجه أصالة إلى رجل من المشركين زعم أنه يحمل عن غيره أوزاره يوم القيامة ، كما يتضح من الحوار : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ (النجم:٣٣-٣٨)، فأحيل في علمه على الأشهر المتداول بين العرب من كتب السماء ، وهي صحف إبراهيم وموسى ، وقدم ما هو أشهر من صحف النبيين الكريمين ، لأن علم العرب بصحف موسى أكثر من علمهم بما في صحف إبراهيم ، بعد أن طال العهد بها ، ومال العرب بشركهم عن الحنيفية ، بخلاف صحف موسى التي يستمعون إليها من أهل الكتاب الذين يساكنونهم في الجزيرة ، فقدم القرآن للمخاطب ما هو به أعلم ، وتداوله لديه أشهر . ذلك ما تنطق به أسباب النزول على ما روى أنها « نزلت في الوليد بن المغيرة ، وذلك أنه سمع قراءة النبي ﷺ ، وجلس إليه ، ووعظه رسول الله ، فقرب من الإسلام ، وطمع النبي ـ عليه السلام ـ فيه ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين ،

وقال له : أتترك ملة آبائك؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه ، وأنا أتحمل لك بكل شيء تخافه في الآخرة ، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال ، فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عما همَّ به من الإسلام ، وضل ضلالاً بعيدًا ، وأعطى بعض ذلك المال لذلك الرجل ، ثم أ مسك عنه وشح ، فنزلت الآية فيه»[1].

فجرى التقديم على ما هو أقرب لدى المخاطب وأشد ظهورًا عنده تسجيلاً عليه . وإلى هذا ذهب أبو السعود في تعليل التقديم قائلاً : «وتقديم موسى لما أن صحفه التي هي التوراة عندهم أشهر وأكثر»[2] .

ومما خفي سر الترتيب فيه قوله تعالى : ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ (الحج:١٩،٢١) فتقدمت البطون على الجلود ، مخالفة للظاهر من أن الصهر يتناول الجلود أولاً ، ثم يفضي إلى البطون ، فعلل الشهاب تأخير الجلود بثلاثة أوجه ؛ أحدها مراعاة الفواصل ، وقدمه على الوجهين الآخرين ، فقال : «وتأخيره عنه إما لمراعاة الفاصلة ، أو للإشعار بغاية الحرارة ، بإيهام أن تأثيرها في الباطن أقدم من تأثيرها في الظاهر ، مع أنه على العكس . وقيل : التأثير في الظاهر ظاهر غني عن البيان ، وإنما ذكر للإشارة إلى تساويهما ، ولذا قدم الباطن ، لأنه المقصود الأهم ؛ فلا يتوهم أن حق النظم تقديم الجلود»[3].

ولا أرى كيف غاب عنه أمر التقديم كما غاب عن غيره ممن قالوا إن البطون مقدمة من تأخير[4]، مع أن المتأمل لنظم الآية لا يخفى عليه أن ترتيب الألفاظ جاء على وفق ترتيب المعاني دون مخالفة للأصل ؛ لأن الحميم يصب

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢٧٦/١٥ .

(٢) تفسير أبي السعود ١١٣/٨ .

(٣) حاشية الشهاب ٢٨٩/٦ .

(٤) انظر تفسير أبي السعود ١٠١/٦، والبيضاوي ٢٨٩/٦، وروح المعاني ١٣٧/١٧ .

من فوق الرأس ، فينفذ منها إلى البطن ، ويبدأ في صهرها حتى ينتهي إلى الجلد،كما يشهد بذلك حديث رسول الله ﷺ :« أخرج عبد بن حميد والترمذي، وصححه ، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وجماعة عن أبي هريرة أنه تلا هذه الآية ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الحميم ليصب على رءوسهم ، فينفذ من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق إلى قدميه ، وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان »[1]، فلا يتصور أن يبدأ الصهر من الجلود ، إلا إذا صب الحميم على جلودهم ، أما وأنه يصب على الرءوس فينفذ منها إلى البطون ، فلا مجال لقول بالتقديم والتأخير ، ولولا أن القرآن قصد إلى حركة الحميم داخل الأجسام ، والنفاذ من الرأس إليها مباشرة ، لقال : يصب عليهم الحميم ، وحينئذ يمكن أن يقال إن الجلود حقها التقديم .

ثم إن التعذيب من الظاهر دل عليه القرآن بقوله ﴿ **قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ** ﴾ وهذا هو العذاب الظاهر للجسد ، فكان صب الحميم في بطونهم نوعًا آخر من التعذيب داخل الأجسام . وقد أحسن أبو حيان تصور المعاني بما يواكب ظلالها في الألفاظ ، فقال : « ولما ذكر ما يعذب به الجسد ظاهره ، وما يصب على الرأس ، ذكر ما يصل إلى باطن المعذب ، وهو الحميم الذي يذيب ما في البطون من الحشا ، ويصل ذلك الذوب إلى الظاهر وهو الجلد ، فيؤثر في الظاهر تأثيره في الباطن »[2].

ومما تداولته الأقلام مثالاً لرعاية الفواصل وتغيير النظم من أجلها ، قوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** ﴾ (الشورى:٤٨-٥٠) قيل : إن تقديم الإناث على

---

(١) روح المعاني ١٣٧/١٧ .

(٢) البحر المحيط ٣٦٠/٦ .

الذكور ، وهن الأدنى منزلة ، جاء لمشاكلة رءوس الآي ، بدليلين : الأول أنه عاد فقدم الذكور حين لم يكن فاصلة ، على الأصل من تقديم الأشرف . والثاني تعريف الذكور لكي يتحقق التناسب مع الفواصل ﴿ كَفُورٌ ﴾ و﴿ قَدِيرٌ ﴾ ولولا هذا التعريف لخالف بالتنوين نسق الفواصل .

وبتتبع ورود الجنسين متعاطفين في الذكر الحكيم ، مُعَبَّرًا عنهما بالذَّكَر والأنثى تارة ، والرجال والنساء تارة ثانية ، وبالبنات والبنين ثالثة ، أحصيت خمسة عشر موضعًا قدم فيها الذكر ، على الأصل من تقديم الأهم بالذات ، لما أن الرجل بحكم تكوينه وقدراته هو المسئول عن توجيه حركة الحياة ، فهو الأصل والأجدر بالتقديم .

وقدمت الأنثى في مواضع خمسة لأهميتها في سياقاتها ، ومقتضيات مقاماتها ، وهو ضرب من الاهتمام بالمقدم لا لذاته ، بل لدواعي الأحوال والأغراض ، وذلك ما نبه إليه الشهاب : « والاهتمام قد يكون مما يقتضيه الذات ، وقد يكون مما يقتضيه المقام والسياق » [1].

والمتأمل لسياق آية الشورى موضع الحديث ، يطالعه هذا الخطاب الحاني على رسول الله ، وهو يواجه عنت قومه وصلفهم ، تأنيسًا له ، وإزالة لهمومه ، فما عليه إن لم يؤمنوا ، وقد أدى مهمته وبلغ رسالة ربه ، وذلك يدلك على مدى العناد والإصرار على الكفر ، كما ذيلت به الآية الأولى ﴿ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴾ ، ثم أعقبه ببيان طلاقة القدرة ، واختصاص الله تعالى بملكية ما خلق ، والتصرف فيه بمشيئته القاهرة لمشيئة من خلق ، فكان البدء بما يشاؤه الله ويكرهه الإنسان أدلَّ على هذه القدرة ، وقهر هؤلاء الذين يحادون الله في ملكه ، لذا بدأ بالجنس الذي جرت عادة المخاطبين على كراهيته ، وعده ضربًا من ضروب البلاء ، إشارة إلى أنه يفعل ما يريده هو لا ما يريده خلقه . وهذا ما كشف عنه بدقة بالغة جار الله الزمخشري :« فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه

---

(١) حاشية الشهاب ٤٢٨/٧ .

فاعل ما يشاؤه ، لا ما يشاؤه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة ما يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم ، وليلي الجنس الذي كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء ، وأخَّر الذكور ، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهم أحقاء بالتقدم بتعريفهم ، لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرَّف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتضى آخر ، فقال : ﴿ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا ﴾ كما قال : ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ (الحجرات:١٣) ﴿ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ (القيامة:٣٩) »[1] .

والمواضع الأربعة الأخرى قدمت فيها البنات على البنين ، وهي قوله تعالى : ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾ (الصافات ١٤٩) ، وقوله : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴾ (الزخرف:١٦) ، وقوله : ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴾ (النحل:٥٧) ، وقوله : ﴿ أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾ (الطور:٣٩) ، وفيها تقدم الأهم في سياقه كذلك ، إذ إن محط الإنكار فيها أن يخصوا الله تعالى بأدنى الجنسين ، وتلك أقبح وأشنع مقالات الكفر ، حيث لم يكتفوا بأن ينسبوا إلى الله الولد ، حتى نسبوا إلى الله منه أخس الجنسين ، ومن كانوا يعزفون عنه ويحقرونه ، على ما صوره الله تعالى في رده عليهم ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴾ (الزخرف:١٦-١٨) .

فلما كانت نسبة البنات إلى الله تعالى هي محط الإنكار ، ونسبتهم البنين إلى أنفسهم زيادة في تفظيع مقالتهم ، قدم المهم وهو البنات .

---

(١) الكشاف ٣/٤٧٥ .

ومما خولف فيه النظم بتقديم غير الأشرف ، لكونه أهم في سياقه ، وتحقق معه رعي الفواصل ، قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (هود:١٠٢-١٠٦) .

جاءت هذه الآيات تذييلاً لقصص أقوام كذبوا بأنبيائهم فحلت بهم لعنات السماء ، وأنزل الله بهم من العقاب في العاجلة ما صاروا به مثلاً للمكذبين ، ثم توعدهم الله في الآجلة بعذاب أشد ، في هذا الجو الذي تحيط به نذر العذاب ، قدم الأشقياء وجزاؤهم على السعداء وجزائهم ، على غرار قوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ (الليل:١٤-١٧) .

تقديم «شقي» هو من تقديم الأهم في سياقه ، وعكس ذلك يذهب بجلال النظم ، ويحجب دخان الانتقام ، وتخفت معه أجراس الأصوات المنذرة المتوعدة ، وليس من أجل تناسب المقاطع كان التقديم ، وإن تعانق هذا التحدر في الإيقاع مع تحدر المعاني وتآخيها ، فيما يشهد بإعجاز النظم الحكيم . لو أن الفاصلة وحدها هي التي استدعت هذا النسق ، لعاد النظم الكريم في غير الفاصلة إلى تقديم الأشرف ، فبدأ بجزاء السعداء ، وقال : فأما الذين سعدوا ففي الجنة ، وأما الذين شقوا ففي النار ، على طريق اللف والنشر المشوش . لكن الغرض إلى وصل حديث الأشقياء بهلاك الأمم السابقة ، هو الذي استوجب تقديم ما قدم ، وهو شائع في غير الفواصل ، كقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(التغابن:٢).

وقد أحسن أبو السعود حين قال : «وتقديم الشقي على السعيد ، لأن المقام مقام التحذير والإنذار»[1].

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/٢٤١ .

لكن العجيب أن أبا السعود الذي تنبه إلى هذا السر في التقديم يقول في قوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ (الشمس:٨) : «وتقديم الفجور لمراعاة الفواصل»[(١)].

وأنت حين تنعم النظر في أعطاف السورة ، تجد المولى يقسم فيها بظواهر الكون على فلاح من طهر نفسه ، وباعد بينها وبين الفجور ، وضياع من أوبقها بالمعاصي . والحديث عن النفس في القرآن حديث المتهم لها بمقارفة الذنوب ، والميل إلى الشهوات ، واتباع الهوى ، كما هو صريح قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ (يوسف:٥٣) ، وقوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ (النازعات:٤٠) ، فتقديم الفجور بها هو الأولى ، لأنه هو الغالب على طبعها ، إلا من رحم الله وهداه إلى كبح جماحها ، وتطهيرها بالتوبة والطاعة . هذا إلى جانب أن السورة قد مضت بعد ذلك في حديث ثمود وطغيانهم ، ومحادتهم لنبيهم وربهم إلى أن حل بهم عذاب الله ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ (الشمس:١٤،١٥) .

فحريٌّ بسورة هذا سياقها أن يتقدم فجور النفس على تقواها ، ليلتئم مع فجور المكذبين .

ومن خفي ضروب التقديم في الفواصل ، ما نراه في مشتبه النظم من تقديم لفظ على آخر في موطن ، وعكس الترتيب في موطن آخر ، مما يبدو لأول وهلة أنْ ليس لهذه المغايرة غرض سوى توافق الفواصل .

من ذلك قوله تعالى حكاية لما دار بين زكريا وربه : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (آل عمران:٤١) فقدم العشي . وعكس ذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ

---

(١) تفسير أبي السعود ٩/١٦٤ .

لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (مريم:١٠،١١) .

وقد حاولت أن أجد فيما قرأت من يستفتح عليَّ في بيان سر التقديم والتأخير في الموضعين فلم أجد ، واحتجب عني هذا السر ، حتى كدت أسلم بأنه ليس وراء ذلك من غرض سوى تحقيق التناسب في الفواصل ، لكن الله تعالى هداني بعد طول توقف إلى أن هذه المغايرة استدعاها تغيير الخطاب وذلك أن المخاطب المأمور بالتسبيح في سورة آل عمران هو زكريا عليه السلام، والمخاطب المأمور بالتسبيح في سورة مريم هو من أرسل إليهم زكريا، وبين الخطابين والمقامين يقع الإعجاز في ترتيب النظم ، فزكريا قدم معه العشيّ ، وتسبيحه فيه يستتبع قيام الليل ، والانقطاع إلى الله تعالى في هذا الوقت الذي يصعب على غير المقربين مواصلة العبادة فيه ، ولذا أمر النبي عليه السلام بقيام الليل ، وقدم على تسبيح النهار في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (المزمل:١،٢) وقوله ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ (المزمل:٦،٧) فنبه إلى أن العبادة بالليل أشد ، ولا يواصلها إلا أصحاب العزائم من المقربين ، أما غير الأنبياء والمقربين فإن جل تسبيحهم وصلاتهم بالنهار ، على قدر ما يطيقه عامة المؤمنين ، لذا قدم ما هو الغالب على عادة الناس في خطاب زكريا لقومه .

ومما بدا فيه أن التغيير في ترتيب النظم مرجعه المحافظة على السجع ، قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ (فاطر:١٩-٢٢) .

فقد بدأ بتقديم غير الأشرف وهو الأعمى ، وجرى على هذا النهج في تقديم الظلمات على النور ، ثم عدل عن هذا الترتيب ، فقدم الأشرف وهو الظل على الحرور ، فكان هذا العكس في الترتيب دافعًا إلى القول بأن هذه المغايرة مرجعها إلى المحافظة على السجع ، إذ لو قدم الحرور لذهب التناسب .

وقد حمل الفخر الرازي على من يقول إن القرآن يقدم ويؤخر لتوافق رءوس الآي ، وعلل المخالفة في الترتيب بأغراض معنوية ، فقال : «وقدم الأشرف في مثلين ، وهو الظل والحرور ، وأخَّره في مثلين ، وهو البصر والنور ، وفي مثل هذا يقول المفسرون إنه لتوخي أواخر الآي ، وهو ضعيف ، لأن توخي الأواخر راجع إلى السجع ، ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع ، فيكون اللفظ حاملاً له على تغيير المعنى ، وأما القرآن فحكمة بالغة ، والمعنى فيه صحيح ، واللفظ فصيح ، فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى ، فنقول : الكفار قبل النبي ﷺ كانوا في ضلالة ، فكانوا كالعمي ، وطريقهم كالظلمة ، ثم لما جاء النبي ﷺ وبيَّن الحق ، واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين ، وطريقهم كالنور ، فقال : وما يستوي من كان قبل البعث على الكفر ، ومن اهتدى بعده إلى الإيمان ، فلما كان الكفر قبل الإيمان في زمان محمد ﷺ ، والكافر قبل المؤمن قدم المقدم ، ثم لما ذكر المآل والمرجع ، قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب ، لقوله في الإلهيات : سبقت رحمتي غضبي ، ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى ، وشابه الأموات في عدم إدراك الحق من جميع الوجوه ، فقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ ﴾ أي المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله ، والأموات الذين تليت عليهم الآيات البينات ولم ينتفعوا بها ، وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن ، فأخرهم عن المؤمنين»[1].

لقد كان الرازي على حق في رفض أن يكون تقديم الظل متمحضًا لغرض لفظي ، هو مراعاة السجع وحده ، وإن كنت أرى أنه مقصد مساوق للمعاني والأغراض ، والدليل على ذلك أن القرآن غاير الترتيب فيما يشبه هذا الموضع ، ولم تكن المغايرة في الفواصل ، حتى يقال إن تغيير الترتيب لتحقيق السجع ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٦/١٧ .

﴿ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓـُٔ ﴾ (غافر:٥٨)، فقدم غير الأشرف وهو ﴿ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾، ثم غاير الترتيب ، فقدم الأشرف ، وهو ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ولم يستدع ذلك ضرورة سجع .

لكنني لا أستريح إلى الإبعاد في جعل الترتيب وجوديًّا ، على أن ﴿ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ يمثل الكفر قبل بعثة النبي ، و ﴿ ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ يمثل الكفر بعد بعثته ، ولا إلى تعليل تقدم الظل بسبق الرحمة للغضب، لأن الآيات مسوقة في مقام التهديد والوعيد، ومثله يستدعى المبادرة بما يدل على الانتقام ، لإدخال الروع في قلوب المستكبرين .

والشهاب الخفاجي يرى أن تقديم الظل «ليكون مع ما قبله على نمط واحد؛ فإن العمى ، والظلمة ، والظل متناسبة ، مع ما فيه من رعاية الفواصل[1]»، والتناسب الذي يعنيه هو اشتراك الثلاثة في احتجاب الضوء عنها ، فلهذا التناسب قدم الظل كما قدم العمى والظلمة ، ولم يقل لنا لماذا قدم الأحياء؟

وحين نتتبع نفي استواء الأشياء في القرآن ، نجده قد ورد خمس مرات في المقارنة بين الأعمى والبصير ، وتقدم الأعمى فيها جميعًا ، وقرن به الظلمات والنور في موضعين اثنين ، وتقدمت فيهما الظلمات ، وهذا التقديم هو الغالب في المقارنة بين المتناقضات ، حين يكون الحديث منصبًّا على تهجين ذوي الأفعال الدنية ، والحط من شأنهم ، فينفي استواء الأدنى بالأعلى ، قصدًا إلى إظهار قبحه بذكر نقيضه ، فكما أن «الضد يظهر حسنه الضد» هو كذلك يظهر قبحه . ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ ﴾ (المائدة:١٠٠) ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (الحشر:٢٠) ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء:٩٥) فأنت ترى تقدم الأدنى ، لأن الحديث في بيان سوئه .

---

(١) حاشية الشهاب ٢٢٣/٧ .

ولما كان السياق في الآيات التي نحن بصددها في ذم المشركين والاستخفاف بعقولهم حين يدعون ما لا يملك شيئًا ، ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ ﴾ (فاطر:١٣،١٤) ـ كان البدء بنفي استواء هؤلاء للذين أعمى الله قلوبهم بمن هداهم الله إلى الإيمان ، كما لا يستوي ظلام الشرك ونور الإيمان ، ثم كانت المغايرة في المقابلة بين الجزاءين ، بتقديم الثواب المتمثل في الظل ، على العقاب المدلول عليه بالحرور ، إيماء إلى أن الله تعالى يعجل الثواب ، ويؤجل العقاب ، على ما سبقت به كلمته ، وهي التي ختمت بها السورة ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ﴾ (فاطر:٤٥) ، فقدم في اللفظ ما هو معجل وأخر ما هو مؤجل ، واطرد ذلك في تقديم الأحياء على الأموات ، لأن الحياة ثمرة الهداية ، وهي نوع من الثواب ، والموت المعبر به عن التمادي في الكفر ضرب من العقاب ، لأنه تخلٍّ من الله عن الكافر ، وحجب أنوار الهداية عن قلبه .

أما حينما يكون الحديث عن الصالحين ، وتعديد مناقبهم ، فإن نفي الاستواء يقدم في الأشرف ، ليتصل الثناء بالمثنى عليه ، ويكون ذكر مقابله زيادة في إظهار فضله كما في قوله تعالى : ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (الزمر:٩) ، فكأنه قال : لا يستوي هؤلاء العابدون العالمون وأولئك الجاهلون الضالون .

* * *

ترتيب الصفات

من الأدلة التي ساقها ابن الصائغ[1] على القصد إلى تحقيق التناسب في الفواصل ، ومخالفة الأصول في سبيل ذلك ، تقديم الأبلغ من الصفات ، على غير ما تقضي به قاعدة الترقي من تأخير الأبلغ ، ومثل لذلك بقوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:١) وقوله ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٢٠) .

وقد أطال المفسرون الوقوف لبيان الفرق بين الرحمن والرحيم ، وسر تقديم الرحمن ، وهم يكادون يجمعون على أنهما من أمثلة المبالغة في الرحمة ، وأن صفة الرحمن أبلغ ، بحكم أنها أكثر مبنى فهي أغزر معنى ، ولذا خص الله تعالى نفسه بهذه الصفة حتى لا يصح أن يوصف بها أحد من خلقه ، بخلاف صفة الرحيم التي وصف بها رسوله ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:١٢٨) ، ووصف بها المؤمنين ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ (الفتح:٢٩) . لكنهم تغايرت آراؤهم في سر تقديم الرحمن ، وأشهرها ما قاله الزمخشري : « فإن قلت : لم قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه ، والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، كقولهم : فلان عالم نحرير ، وشجاع باسل ، وجواد فياض؟ قلت : لما قال ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ ، فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها ، أردفه ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ كالتتمة والرديف ، ليتناول ما دق منها ولطف »[2].

« كان القياس تقديم أدنى الوصفين ، لأن في تقديم أعلاهما ، ثم الإرداف بأدناهما ، نوعًا من التكرار ، إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول ما دونه ، فذكره

---

(١) انظر الإتقان ٢/١٠٠ .

(٢) راجع الكشاف ١/٤٥ .

بعده غير مفيد»[1] ؛ لذلك كان عكس ما يقضي به القياس بحاجة إلى البيان ، فخص الزمخشري الرحمن بعظائم النعم وجلائلها ، والرحيم بما دق منها ولطف ، فكان ذكر الرحيم على سبيل التتميم حتى لا يتوهم أن محقرات الأمور لا تليق بذاته ، فيحتشم عنه من سؤالها »[2].

إلا أن تخصيص الرحمن بجلائل النعم،والرحيم بدقائقها مما لا دليل عليه، بل إن الله تعالى كثيراً ما يذكر جلائل النعم وأصولها ، ويعقبها بصفة الرحيم وحدها ، فقد ذكر الله تعالى جليل نعمه على الإنسان في مطلع سورة النحل ، وعدد منها خلق الملائكة ، والسموات والأرض ، وخلق الإنسان ، وما سخره له في الأرض من الأنعام والخيل والبغال والحمير ، وما أنزل من السماء من ماء أنبت به الزرع والنخيل والأعناب ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والفلك والبحار ، والجبال والأنهار ، ثم عقب ذلك كله بقوله ﴿ **وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (النحل:١٨) .

ولا شك أن هذه نعم جليلة ، وتسخيرها للإنسان دليل على بالغ رحمة الله به ، ومع ذلك عللت بصفة « الرحيم» .

وهذا الدليل نفسه يرد به على ما حكاه الراغب في المفردات : « وقيل إن الله هو رحمن الدنيا ، ورحيم الآخرة ، ذلك أن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين ، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين »[3] ، فتعقيب هذه النعم التي شملت الكافر والمؤمن بالرحيم يضعف هذا القول . وكما أن الله تعالى خص الرحمة بالمؤمنين في قوله تعالى : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾ (الأحزاب:٤٣) فإنه عَمَّ بها الناس جميعًا ، فيما هيأه لهم من سبل العيش في الدنيا ﴿ **رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** ﴾

(الإسراء:٦٦) .

---

(١) الإنصاف ١/٤٥ .

(٢) حاشية السيد الشريف ١/٤٥ .

(٣) المفردات ص ١٩٢ .

خير ما قيل في تعليل الجمع بين الوصفين بما يظهر بلاغة النظم الحكيم في تقديم الرحمن ما قاله ابن القيم : «وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما ، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، فكان الأول للوصف ، والثاني للفعل ، فالأول دال على أن الرحمة صفته ، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته ، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولم يجئ قط رحمن بهم ، فعلم أن (رحمن) هو الموصوف بالرحمة ، ورحيم هو الراحم برحمته ، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب ، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم ينجل لك صورتها»[1].

تأسيسًا على ذلك قدمت صفة الذات على صفة الفعل ، لأن صفة الفعل ناشئة عنها ، فهي بمنزلة المسبَّب من السبب ، ولعل ذلك هو الذي استلهمه الشيخ الطاهر بن عاشور في قوله : «وتقديم الرحمن على الرحيم ، لأن الصفة الدالة على الاتصاف الذاتي أولى بالتقديم في التوصيف من الصفة الدالة على كثرة متعلقاتها»[2].

أما تقديم الرءوف على الرحيم في مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة:١٤٣) فقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن تقديم الرءوف وهو الأبلغ ، للمحافظة على تناسب رءوس الآي[3] ، ومنهم البيضاوي الذي رد عليه الشهاب بقوله : «هو بناء على تفسير الرأفة بأشد الرحمة ، وحينئذ المناسب رحيم رءوف ، وفيه نظر من وجهين : الأول أن

---

(١) بدائع الفوائد ١/٢٤ .
(٢) التحرير والتنوير ١/١٧٢ .
(٣) البحر المحيط ١/٤٢٧، والبيضاوي ٢/٢٥٢ .

فواصل القرآن لا يلاحظ فيها الحرف الأخير كالسجع ، كما هنا في «رحيم وتعملون» ، فذلك حاصل على كل حال ، والثاني أن الرأفة حيث وردت في القرآن قدمت ، ولو في غير الفواصل ، كما في قوله تعالى : ﴿ **رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا** ﴾ في وسط الآية ، والذي غره كلام الجوهري ، وهو عندي ليس بصواب ، فإن الرأفة معناها الشفقة واللطف ، والرحمة : الإنعام ، ورتبتها التقديم ، كما قيل : الإيناس قبل الإبساس . وعليه استعمال العرب قال قيس بن الرقيات :

مُلْكُهُ مُلْكُ رَأْفَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ مِنْهُ وَلاَ كِبْرِيَاءُ

وانظره كيف أوضح معناها بالتقابل ، ومثله كثير في كلام العرب»[1].

لقد أحسن الشهاب كل الإحسان في الوجه الثاني الذي رد به كلام البيضاوي ، لكننا لا نسلم له بالوجه الأول ، لأن الفواصل في الآيات وإن لم تكن متحدة الروي ، فإنها متقاربة ، والميم والنون حرفان متقاربان ، وعليهما بنيت معظم فواصل القرآن ، واستبدال الفاء بالميم يذهب بتوافق المقاطع وجمال موسيقاها .

يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعي : «وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقًا عجيبًا يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها»[2] .

فالفواصل التي تنتهي بالميم والنون لها وقع موسيقي لا يكون لحرفين آخرين سواهما إلا أن يتحد الروي ، فالقول بأن الفاء مع النون كالميم معها لا يتفهم طبيعة الحرفين ، وعلى هذا التوافق الموسيقي بين النون والميم بنى القائلون بتأخير الرحيم للفواصل رأيهم : «وتقديم (رءوف) ليقع لفظ (رحيم)

---

(١) حاشية الشهاب ٢/٢٥٢ .

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢١٦ .

فاصلة ، فيكون أنسب لفواصل هذه السورة ، لابتداء فواصلها على حرف صحيح ممدود ، يعقبه حرف صحيح ساكن ، ووصف (رءوف) معتمد مع ساكنه على الهمز ، والهمز شبيه بحروف العلة ، فالنطق به غير تام التمكن على اللسان ، وحرف الفاء لكونه يخرج من بطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا أشبه حروف اللين ، فلا يتمكن عليه سكون الوقف » [1] .

لكن ذلك لا يعني أننا نوافق على أن التقديم لمراعاة الفاصلة وحدها ، لأن مثل هذا يعاب على الساجع . يقول ابن سنان : « والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلا متيسراً بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه ، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأصله ، وورد ليصير وصلة إليه » [2] .

أفيعاب هذا على الناس في سجعهم ونقول به في النظم المعجز؟!

لقد أنكر الإمام محمد عبده القول بمراعاة الفواصل في هذه الآية أشد الإنكار فقال : « إن كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها ، فليس فيه كلمة تقدمت ولا كلمة تأخرت لأجل الفاصلة ؛ لأن القول برعاية الفواصل إثبات للضرورة ، كما قالوا في كثير من السجع والشعر : إنه قدم كذا ، وأخر كذا لأجل السجع ، ولأجل القافية ، والقرآن ليس بشعر ، ولا التزام فيه للسجع ، وهو الله الذي لا تعرض له الضرورة ، بل هو على كل شيء قدير ، وهو العليم الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه » ، ثم قال : « وعندي أن الرأفة أثر من آثار الرحمة ، تشمل دفع الألم والضر ، وتشمل الإحسان ، فذكر الرحمة هنا فيه معنى التعليل والسببية ، وهو من قبيل الدليل بعد الدعوى ، فهو واقع في موقعه كما تحب البلاغة وترضى » [3] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٦ .
(٢) سر الفصاحة ص ١٦٤ .
(٣) تفسير المنار ٢/١٣ .

هذا كلام طيب وبمثله يجب أن ننظر إلى فواصل القرآن، لكن صاحب المنار الذي أثبت هذا الكلام الممتع خالفه أحيانًا ، ففسر التقديم والتأخير برعى الفواصل ، كما أشرنا إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

ومما بدا فيه أن التقديم جرى على غير الأصل لمشاكلة رءوس الآي ، تقديم السميع على العليم . يقول أبو حيان في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (البقرة:١٣٧) : « مناسبة هاتين الصفتين أن كلا من الإيمان وضده مشتمل على أقوال وأفعال ، وعلى عقائد ينشأ عنها تلك الأقوال والأفعال ، فناسب أن يختتم ذلك بهما ، أي هو السميع لأقوالكم ، العليم بنياتكم واعتقادكم ، ولما كانت الأقوال هي الظاهرة لنا ، الدالة على ما في الباطن قدمت صفة السميع على العليم ، ولأن العليم فاصلة أيضًا » [1] .

فهو يشير بذلك إلى أن الترتيب الوجودي يقضي بتقديم صفة العليم ، لأنها إحاطة بالعقائد، والسميع صفة يترتب عليها العلم بالأقوال الناشئة عن العقائد، فحقها أن تقع بعدها ، لكن جاء النظم بعكس هذا الترتيب ، مراعاة لعلم المخاطبين ، الذين يستدلون بالظواهر على البواطن ، ولكون تأخير العليم يحقق تناسب الفواصل .

والمتتبع لورود هاتين الصفتين في الكتاب المجيد لا يخطئه أن يجد التذييل بهما في موقعين متقابلين : أحدهما في مجال التهديد والوعيد ، كما في هذه الآية ، حيث يهدد أهل الكتاب بأن الله يتولى عن نبيه مراقبتهم ومجازاتهم بأعمالهم ، وكما في قوله : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الأنفال:٦١) ، وفيه طمأنة للمؤمنين بأن الله راد كيد أعدائهم إن هم أضمروا السوء في دعوتهم إلى السلم ، يكشف أمرهم ويأخذهم بمكرهم . ومقام التهديد يستدعي تقديم السمع ، للإشعار بقربه من الأصوات

---

(١) البحر المحيط ٤١١/١ .

وشدة مراقبة أصحابها ، وذلك ما كشف عنه السهيلي في قوله : « فبدأ بالسمع لتعلقه بما قرب ، كالأصوات وهمس الحركات ، فإن من يسمع حسك وخفي صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك إنه يعلم ، وإن كان علم الباري سبحانه متعلقًا بما ظهر وبطن ، وواقعًا على ما قرب وشطن ، ولكن ذكر السمع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم ، فهو أولى بالتقديم » [1] .

والثاني في مجال التقرب إلى الله واستدرار عونه ورحمته كما في دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٧)، وقد قدمت فيه صفة السمع لأنها التي يترتب عليها إجابة الدعاء ، ولما كان الدعاء لا يُقبل إلا إذا خرج من قلب صادق وعقيدة سليمة جاء الوصف بالعليم ، ليدل على إخلاصهما وصدق بواطنهما في توجهها إلى الله تعالى ، حين يكونا جديرين بتقبل الله تعالى لأعمالهما .

هذا الذي استدعى تقدم السميع على العليم هو نفسه الذي استدعى تقدم الشاكر على العليم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٥٨) .

وليس كما قال أبو حيان : « وقد وقعت الصفتان هنا الموقع الحسن لأن التطوع بالخير يتضمن الفعل والقصد ، فناسب ذكر الشكر باعتبار الفعل ، وذكر العلم باعتبار القصد ، وأخرت صفة العلم ، وإن كانت متقدمة على الشكر ، كما أن النية مقدمة على الفعل لتواخي رءوس الآي » [2].

والشكر من الله على ما قال الراغب : « إنعامُه على عباده ، وجزاؤه بما أقاموه من العبادة »[3]، هذا الإنعام والإحسان استحقه المتطوعون بأعمال الخير ،

---

(١) نتائج الفكر ص ٢٧١ .
(٢) البحر المحيط ٤٥٨/١ .
(٣) المفردات ص ٢٦٦ .

فقرن الله تعالى حسن الجزاء بحسن العمل ، وكأنه قال : من تطوع خيراً فأحسن النية والعمل كافأه الله بأحسن مما عمل ، ثم جاء الوصف بالعليم بمثابة تأكيد على أن الله لا يضيع من أجورهم شيئًا ، لأنه العليم بما تبديه الجوارح وتخفيه الصدور ، فجاءت كل صفة في مكانها ، وهذا ما يتضح مما نقله صاحب الفتوحات الإلهية في تفسير هاتين الصفتين وموقعهما من الآية . قال : « معنى الشاكر في حق الله ـ تعالى ـ المجازي على الطاعة بالثواب ، ففي التعبير به مبالغة في الإحسان إلى العباد ، ومعلوم أن الشاكر في اللغة هو المظهر للإنعام عليه ، وذلك في حق الله تعالى محال ، وقوله (عليم به) أي بأحواله ، فلا ينقص من أجره شيئًا ، وهذا علة لجواب الشرط قائم مقامه ، فكأنه قال : ومن تطوع خيراً جازاه وأثابه فإن الله شاكر عليم »[1] ، فدل على أن صفة الشكر وقعت في موقع الجزاء لتطوعهم بالخير ، فوجب أن تتقدم ، ولو عكس النظم لأوهم تقدُّمُ العليم التعريض بهم ، وأن الله يجازي منهم من علم حسن نيته وإخلاصه ، وليس ذلك بمراد .

إن من يتتبع ترتيب الصفات في تذييل الآيات يرى عجبًا ، ويوقن أن وراءها من أسرار الإعجاز ما لا تحيط به الأقلام ، وتقصر عن إدراك كنهه الأفهام ، فهي بحاجة إلى مداومة النظر والتذرع بالصبر للوقوف على بعض أسرارها وعدم الركون إلى اليأس ، والإسراع إلى القول بتناسب الفواصل .

فالقرآن يغير ترتيب الصفات في مشتبه النظم الحكيم ، فيقدم إحدى صفتين في موضع ، ويقدم الأخرى في موضع آخر ، وكلتا الصفتين تحقق تناسب الفواصل تقدمت أو تأخرت ، مثل : العليم الحكيم ، فهما من روي واحد ، هو الميم المسبوقة بياء المد ، ولا تتغير الفاصلة بتغير ترتيبها ، وقد اجتمعت هاتان الصفتان في القرآن ستًّا وثلاثين مرة ، تقدمت العليم في ثلاثين منها ، وتقدمت « الحكيم » في ستة مواضع ، وليس ثمة مجال للقول بمراعاة الفواصل .

---

(١) الفتوحات الإلهية ١/١٢٦ .

وحين يتأمل كل موضع في سياقه نجد من دواعي النظم ما يوجب تقدم المقدم ، وأي محاولة لعكس الترتيب إنما تذهب ببلاغة النظم وسر إعجازه .

ولنأخذ مثلاً من مواضع تقدم العليم ، قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:٣١،٣٢) ، فهل يمكن والحديث كله في سياق العلم الذي منحه الله ـ تعالى ـ آدم ، ورفع به قدره حتى تتبين الملائكة ما كان قد خفي عليها من سر استخلاف الله له ، وأمرهم بالسجود له؟ هل يمكن أن يقدم الوصف بالحكيم في مثل هذا السياق؟ أو ليست الحكمة قد جاءت تسليمًا من الملائكة بأن الله تعالى كان بالغ الحكمة في اختيار ما علمه من صلاح الخليفة لما استخلف فيه؟

وهذا قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال:٧١) ، يربط الله فيه على قلب الرسول ـ عليه السلام ـ ويطمئنه بأنه سيكون عينه التي تكشف له ما يدبره أعداؤه من كيد ومكر ، فهو المطلع على أسرارهم ، العليم بما تكنُّه صدورهم ، ويذكره بمصير الذين خانوا من قبل فمكنه الله تعالى من رقابهم ، والخيانة من شأنها أن تحاط بالكتمان ، والخائن يدبر أمره بليل ، فكان تقديم صفة العليم التي لا يخفى بها على الله شيء ، هي الأنسب بهذا السياق .

ثم انظر كيف تقدم الوصف بالعلم ، حين انكشفت حقيقة رؤيا يوسف ـ عليه السلام ـ وعلم ما كان خافيًا منها في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:١٠٠) .

أما المواضع التي تقدم فيها وصف الحكيم ، فإنها جميعًا تدل على إطلاق مشيئته في أفعاله ، مما يخفى معه وجه الحكمة ، على خلقه ، فكان تقديم ما يدل على وصفه بغاية الإحكام دعوة للعقل إلى تفويض الأمر لمن خلق فيما يتقاصر عن إدراكه ، وتغيب عنه حكمته ، ففيما أدركه دليل على ما فاته .

فهذه منازل عباده قدَّرها متفاوتة ، يرفع درجات من يشاء ، ويخفض من يشاء ، وهو الحكيم فيما يرفع ويخفض . ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ (الأنعام:٨٣) تقدَّم وصف الحكيم ، لأنه الأهم في تعليل إطلاق مشيئته ، وجاء العليم بمثابة التأكيد لإحكام أفعاله ، لأنه يفعلها عن علم محيط بمن يرفع ومن يخفض .

وهذه إرادته المطلقة التي تحكمت في الخلق إيجادًا وإعدامًا ، هداية وإضلالاً ، تتحكم في جزاء الضالين يوم القيامة ، فتعاقب بالتخليد في النار من تشاء ، وتقطع هذا العقاب عمن تشاء ، وهي في كل ذلك تحيطها حكمة الحكيم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور : ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ (الأنعام:١٢٨) .

فهل يمكن أن يقدم وصف العليم في تعليل أفعال خفي فيها وجه الحكمة في التمييز بين المتعاقبين؟ إن العلم حين يأتي عقب الحكمة هنا يعيد إلى العقل رشده ، لتطمئن قلوب العباد إلى أن حكمته في أفعاله وراءها علم بما خفى ودقَّ من أحوال خلقه فهو الحكيم لأنه العليم ، هذا التعليل بالحكمة والعلم فيما شاء إخراجه من النار كان حريًّا بأن يغنينا عن جدل طويل حول الاستثناء في الآية ، ومن هم المستثنون؟ ومن ماذا يستثنون؟ مما يجب أن نفوض فيه الأمر للحكيم العليم .

وفي قصة رسل إبراهيم حين بشروه بإسحاق ، وجوابهم لامرأته حين تعجبت من أن تلد وهي عجوز عقيم ، مثل واضح لبلاغة النظم الكريم في

ترتيب الألفاظ وفقًا لحركة النفس والعقل في استقبالهما للمعاني وتصورها . قال تعالى : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الذاريات:٢٨-٣٠) .

لقد كانت دهشة سارة كما رصدها القرآن بالصوت والصورة ، فانطلق لسانها بما جاش في صدرها ، وتملكها من الذهول والحيرة ـ كانت استعظامًا للحدث على ما جرت به العادة ، لا استعظامه على المحدث القدير ، فاكتفى الملائكة برد هذا الحدث العظيم إلى المحدث الأعظم ﴿ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ وكأنهم أردوا أن يفيقوها من دهشتها ، وينقلوها من عظمة الحدث إلى عظمة المحدث ، وهذا كاف لذهاب حيرتها وتعجبها . أما لماذا كان هذا بعد هذه السن وآفة العقم اللتين يستحيل بهما في دنيا الناس أن يكون ما كان ، فذلك مقتضى الحكمة التي نفوض أمرها إلى الله فيما لا تطوله العقول . فالوصف بالحكيم حين يتقدم في هذا الموضع إنما يواكب حركة النفس والعقل في تطلعهما إلى الإجابة عما يجول في النفس ، ويدور به الخاطر .

بمثل هذا الإحكام في ترتيب الصفات ننظر إلى تقديم «الغفور» على «الرحيم» في أكثر من سبعين موضعًا من فواصل القرآن ، حيث يجيء الوصف بالرحيم تعليلاً لمغفرته التي وسعت ذنوب العباد ؛ جليلها ودقيقها ، ووسعت ذواتهم ، مؤمنهم وعاصيهم ، فهو واسع المغفرة عظيمها ، يستر ذنوب عباده ، ويتجاوز عن خطاياهم ، لأنه عظيم الرحمة بمن خلق ، وهكذا جاء وصف الرحمة متأخرًا أبدًا إلا في موضع واحد ، هو قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (سبأ:١،٢) .

وفي البحث عن سر هذه المخالفة أسرع المفسرون إلى الفاصلة ، يعلقون بها هذه المغايرة ، حين عز عليهم وجود سبب غيرها ، أو وجدوا سببًا غير

مقنع . يقول الشهاب : «قدم الرحمة لأنها منشأ المغفرة ، أو للفاصلة»[1] ، وكأن الشهاب أحس بضعف تعليله من المعنى ، فلجأ إلى الفاصلة ، لأن كون الرحمة منشأ المغفرة يتوارد عليه أن المغفرة قدمت في جميع المواضع التي اقترنت فيها بالرحمة ، عدا هذا الموضع ، فلماذا لم تراع هذه النكتة فيها جميعًا؟

أما تعليله بمراعاة الفاصلة ، فينقضه مجيء الغفور متقدمًا في موضع يتطلب تناسب الفواصل تأخيره ، لأن الفاصلة قبله على روي الراء ، بل إنها نفس الفاصلة التي سبقت آية سبأ ، وهي قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات:١٣،١٤) .

فالفاصلة التي سبقت «الرحيم» وهي «خبير» هي نفسها التي سبقت «الغفور» في سبأ ، فلو كان التقديم للمشاكلة لقدمت هنا كما قدمت هناك .

أرى ـ والله أعلم بمراده ـ أن الغفور يتقدم في كل موطن يهمس فيه السياق بوقوع المعاصي وكفران النعم ، والدعوة إلى التوبة والاستغفار من الذنوب ، فتكون المبادرة بالمغفرة لطمأنة المذنبين والخطائين إلى أن يد الله ممدودة إليهم ، تعفو عنهم وتستر خطاياهم ، لأنه رحيم بهم ، كما نجده في مثل قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران:٨٩) ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر:٥٣) ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (يوسف:٩٧،٩٨) .

---

(١) حاشية الشهاب ٩/١٨٧ .

أما الآية التي تقدمت فيها الرحمة من سورة سبأ ، فهي في سياق يعدد الله تعالى فيه نعمه على خلقه ، المستوجبة للحمد والشكر عليها فيذكر إحكام أمره وهيمنته على ما في السموات والأرض ، إيجادًا وإعدامًا ، إحياء وإماتة ، وتدبير أمر الكون وتسخير ما فيه للإنسان بما يودعه في أرضه من أسباب النفع ، وأظهرها ما يتخلق في بطنها من أجنة النبات ، فتخرجه حيًّا ناضرًا ، يحيا به الإنسان والحيوان ، وما يمدها به من أسباب النماء منزلاً بقدر من السماء . وغير ذلك مما أودع الله تعالى باطن الأرض ، سيظل العلم يكشف عن بعضها إلى أن يلقى الناس رب الناس . هذه النعم الجليلة مصدرها ودوام بقائها رحمة الله الواسعة بخلقه مع مقابلتهم لها بالكفران والنسيان ، ولو أمسك الله تعالى واحدًا من مظاهر رحمته وهو الماء الذي ينزله من السماء لما بقي على ظهرها من دابة ، لهذا جعل الله تعالى الرياح التي تسوق الأمطار أثرًا من آثار رحمته ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ (الأعراف:٥٧)، فتقديم الرحمة هو الأنسب بهذا السياق ، حيث كانت سبب نعمه ، وهي بعد سبب في تجاوزه عمن أنعم عليهم إن هم قصروا في شكره عليها .

وللسهيلي وجه في هذا التقديم لا يبعد عن بلاغة النظم ؛ لأنه يجعل الترتيب ضربًا من الترقي بذكر الخاص بعد العام . يقول : « وأما قوله ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ في سبأ ؛ فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة ، إما بالفضل والكمال ، وإما بالطبع ، لأنها منتظمة بذكر أوصاف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان ، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصهم ، والعموم بالطبع قبل الخصوص »[1] .

ومما اتخذ دليلاً على مراعاة الفاصلة في الترتيب بين الصفات ، تقديم الرسول على النبي في قوله عز وجل : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾ (مريم:٥١) .

---

(١) نتائج الفكر ص ٢٧١ .

وقوله ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾ (مريم:٥٤) .

يقول الشيخ عبد الرحمن تاج في معرض تدليله على أن القرآن يقدم ويؤخر لتوخي التناسب بين الفواصل : «وذلك أن الرسالة أخص من النبوة ، والمعهود في الكلام المرسل الذي يجمع بين عام وخاص أن يقدم الأول على الثاني ، لكنه قدم في هاتين الآيتين الخاص على العام ، مراعاة لتناسب الفواصل مع اتحاد المعنى ، فإن السورة بنيت على فاصلة الياء المشددة التي بعدها ألف»[1] .

قبل أن نعرض لبيان السر في تقديم الرسول على النبي نقدم الدليل على سقوط القول بمراعاة الفاصلة من قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ (الأعراف:١٥٧)، وقوله ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ﴾ (الأعراف:١٥٨) ، وفيهما قدم الرسول على النبي في غير الفواصل ، فالقول بأن تقديم الرسول للفاصلة في قوله ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾ يفتقر بداية إلى الدقة في تتبع مواطن اجتماعهما في الذكر الحكيم .

وحين نستنطق المعاجم بحثًا عن معنى الرسول والنبي نجد الرسول في اللغة «الذي يتابع أخبار الذي بعثه ، أخذًا من قولهم : جاء الإبل رسَلا ، أي متتابعة»[2] .

ويقول الراغب في تفسير النبي : «النبوة سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده لإزاحة علتهم في أمر معادهم ومعاشهم ، والنبي لكونه منبئًا بما تسكن إليه العقول الذكية»[3] ، واشتقاق النبي إما من النبأ بمعنى أنه المخبر عن الله تعالى ، أو من النبوة والنباءة بمعنى الارتفاع .

---

(١) الشيخ عبد الرحمن وبحوث قرآنية ص ١١٩ .

(٢) لسان العرب مادة : (رسل) .

(٣) المفردات ص ٤٨٢ .

وبالمقارنة بين مدلولي اللفظين لغويًا نجد الرسول يطلق على من يتحمل خبرًا ممن أرسله إلى من أرسل إليه ، سواء كان المرسل هو الله أم غيره ، أما النبي فإنه المخبر عن الله تعالى ، وهو بهذا أخص من الرسول ، وعليه يكون تقديم الرسول على النبي ماضيًا على الأصل في الترقي من العام إلى الخاص ، وإذا كان اشتقاق النبي من النبْوة كان الوصف بالنبي بعد الرسول مشيرًا إلى علو منزلته بين الرسل ، على ما جاء في وصف إدريس عليه السلام ﴿ **وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا** ﴾ (مريم:٥٧) . وإلى هذين الوجهين أشار الشهاب في شرحه لقول البيضاوي : « أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه » . قال الشهاب : « إشارة إلى أن الرسول بمعنى المرسل ، وقوله (أنبأهم أي أخبرهم) إشارة إلى أن النبي بمعنى المنبئ عن الله بالتوحيد والشرائع ، وأن أصله الهمزة فأبدلت في النبي والنبوة ، ولو قيل هنا إنه من النَّبوة بدليل قوله : ﴿ **مَكَانًا عَلِيًّا** ﴾ والمعنى : رفيع القدر على غيره من الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ليكون بمعنى آخر أخص ـ كان أظهر . . ويحتمل أن يريد أن المراد بالرسول والنبي هما معناهما اللغوي ، وهو المرسل من الله ، والمنبئ عن الله ، وليس كل مرسل ينبئ ، لأنه قد يرسل بعطية ومكتوب ، فلذا قدم »[1] .

وبالرغم من الاختلاف حول الوجه الذي كان به الرسول أخص ، فإنه حين يجمع بينهما يحمل كل منهما دلالته اللغوية ، فيكون في الإرسال معنى حمل الرسالة وتبليغها ، ويكون في النبوة معنى الخبر الصادق كما هو أصل النبأ على ما صرح به الراغب : « النبأ خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن ، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة ، وحق الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب ، كالتواتر ، وخبر الله تعالى ، وخبر النبي عليه الصلاة والسلام[2] »، فكأنه قال : وكان مرسلاً من الله مبلغًا عنه بالخبر الصادق .

---

(١) حاشية الشهاب ٦/١٦٤ .

(٢) المفردات ص ٤٨١ .

أما على تفسيرهما في اصطلاح الشرع بما يدل على عموم النبوة وخصوص الرسالة ، لأن الرسول مأمور بالتبليغ ودعوة الخلق ، بخلاف النبي ، أو لأنه خص بكتاب أنزل معه ، فقد ذهب القرطبي إلى أن الرسول قدم اهتمامًا بمعنى الرسالة[1] ، وهو وجه في التقديم غير عزيز في لسان العرب .

وهذا مثل جلي فيما اجتمع من الصفات في تذييل الآيات ، يغير القرآن في ترتيبها بما يحقق تناسب المقاطع حتى يخيل إليك أنه من أجل هذا التناسب كان التغيير ، فإذا تأملت السياق ومقتضياته ، أيقنت أن المغايرة ما كانت إلا استجابة للمعاني والأغراض .

وصف الله ذاته بالعلي والكبير ، وكان الوصف بـ« العلي » يتقدم فيقع « الكبير » فاصلة ، يتعانق رويها مع الفواصل ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (لقمان:٢٩،٣٠). وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾(الحج:٦١،٦٢)، وقوله : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (سبأ:٢٢،٢٣) .

وحين بنيت الفواصل في سورة النساء على الألف الممدودة المنقلبة عن التنوين ، المسبوقة بياء المدّ جاء وصف « الكبير » متناغمًا مع هذا الإيقاع ،

---

(١) تفسير القرطبي ٤/٣٤، ٣٧ .

﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴾ (النساء: ٣٤) .

وفي سورة الرعد حيث كانت الفاصلة مبنية على حرف صحيح ساكن عند الوقف بعد مد بالألف غوير ترتيب الوصفين ، وغويرت الصيغة من «العلي» إلى «المتعال» ، فتناغمت مع الفواصل قبلها وبعدها ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾ (الرعد: ٨، ٩).

فاطِّراد تقدم «العلي» في جميع المواضع عدا الموضع الأخير مع ملاءمته للفواصل ، والعدول عن هذا الترتيب في آية الرعد وحدها ، وهو الذي تحقق به تناسب الفواصل يبدو كما لو كان القرآن يعمد إلى هذا التوافق الموسيقي ، ويغير من أجله .

فإذا عدنا إلى الآيات التي تقدم فيها «العلي» وجدناها في سياق يبطل الشرك ويدحضه ويستهين فيه بالمشركين ومن أشركوهم معه ، فكان تقديم الوصف الذي يظهر الاستعلاء على من اتخذوهم من دون الله أندادًا هو الأليق بهذا السياق على ما تقضي به قاعدة تقديم الأهم . الآية الوحيدة التي تقدم فيها «العلي» في غير هذا السياق هي آية النساء ، وفيها يصف الله تعالى طرق العلاج لإصلاح النساء اللواتي يخرجن عن طاعة أزواجهن ، وحتى تكون هذه الطرق وسائل للعلاج ، لا أدوات لإذلال النساء والتعالي عليهن ، جاء قوله تعالى: ﴿ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴾، فتجاوب تقديم «العلي» مع استعلاء الطغاة من الرجال إدلالاً بقدرتهم ، وبغيًا على من بأيديهم من النساء ، وتجاوب كذلك مع صريح دلالة حرف الاستعلاء في قوله ﴿ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ ﴾ ، فالموضع للعلي أصالة ، وجاء «الكبير» تذكيرًا لهذا المستعلي الباغي بقدرة الله ، الذي شرع هذه الوسائل من العلاج ، ولا يرضى بتجاوزها طغيانًا وكبرًا .

أما الموضع الذي عكس فيه الترتيب من سورة الرعد فقد جاء في مقام الإدلال بكمال قدرة الله وتعاليه عما يصفه به المشركون ، بعد أن ساق الله من بداية السورة أمثلة لكمال قدرته . بدأها بقوله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (الرعد:٢) ، وعدَّد مظاهر خلقه في السماء ، من الشمس والقمر ، وما ترتب عليها من تعاقب الليل والنهار ، وبسط الحديث عن مظاهر خلقه في الأرض من الأنهار والجبال والثمار والزروع ، وأنهاها بخلقه للإنسان ، وعلمه بأحوال الأجنة وأطوارها ، وبما خفي ودق من أسرار الكون ، تخلل ذلك تهديد المشركين المنكرين للبعث المستخفين بعذاب الله ، المستعجلين له ، فجاء تقديم «الكبير» الدال على عظمة الخالق وكبريائه متجاوبًا مع سياق يعدد مظاهر قدرته ، ثم أعقبه وصف «المتعال» بهذه الصفة الدالة على كمال العلو ، لأن التفاعل فيها للمبالغة كما قال الراغب[1] ، لتنزيه الله تعالى عما وصفوه به من اتخاذه الولد وغير ذلك مما يقدح في كمال قدرته وعظيم شأنه ، وهو ما أشار إليه الطيبي فيما نقله الشهاب : « إن معنى ﴿ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ بالنظر لما وقع بعده وهو ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ : هو العظيم الشأن الذي يكبر عن صفات المخلوقين ، ليضم مع العلم العظمة والقدرة بالنظر إلى ما سبق من قوله ﴿ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ ﴾ إلخ مع إفادته التنزيه عما يزعم النصارى والمشركون» [2] ، فإذا كانت صفة المتعال إلى دلالتها على كمال الرفعة تشير كذلك إلى تنزيه الله تعالى عما وصفه به أراذل خلقه ، فإن موقعها من النظم يكون بعد إثبات كمال عظمته وقدرته التي دل عليها وصف «الكبير» .

ومن روائع اجتماع الصفات ومخالفة ترتيبها في فواصل القرآن بما يحقق التجانس في اللفظ والمعنى قوله تعالى حكاية للحوار الذي دار بين ملك مصر ويوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٥٤،٥٥) .

---

(١) المفردات ص ٣٤٥ .

(٢) حاشية الشهاب ٥/٢٢٣ .

قدم الملك ما يفيد العلم على الأمانة ، وعكس يوسف ـ عليه السلام ـ الترتيب ، فقدم ما يفيد الأمانة على العلم ، وتحقق بتقديم « حفيظ » في كلام يوسف التقارب في الفواصل بين النون والميم ، والاتفاق في الردف وهو الياء .

وحين نبحث عن وجه دلالي لهذه المغايرة ، نرى أن الملك ضمن وصفه « مكين » ـ ومعناه : ذو مكانة ومنزلة ـ وصفه بالعلم ، لأن يوسف لم يصل إلى هذه المكانة إلا بما أظهره من العلم في تأويله رؤيا الملك ، ورسمه خطة دقيقة للموازنة العامة في سني الجدب ، ليجنب الأمة أخطار المجاعة حتى تتخطى هذه الأزمة ، والعلم وحسن التخطيط هو المؤهل الأول لتولي مثل هذه الوزارة ، فقدمه الملك على الوصف بالأمانة ، لأنه الأهم في فكر ملك حريص على الإفادة من علم يوسف في ظروف حرجة تمر بها أمته ، ويقع الوصف بالأمانة مبالغة في حرصه على التمسك به ، وجدارته بهذا المنصب .

أما يوسف ـ عليه السلام ـ فقد كان تقديم ما يدل على أمانته هو الأهم عنده ، لأنه بعد أن استشف من كلام الملك رغبته في الاستعانة به في أمور الملك وهو على وشك أن يستوزره ، بادر بطلب وزارة الخزانة وهي وزارة تتعلق بالأموال العامة ، وطلبها بوجه خاص ربما يثير شبهة في الإفادة منها ، فكانت مبادرته بتقديم وصف الحفيظ لدفع مثل هذا التوهم ، وتأكيد نزاهته ، والإشعار بأن ولاية الأموال تحتاج في المقام الأول إلى ذمم نظيفة ، وضمائر حية تسبق حاجتها إلى الخبرة والعلم ، فصاحب اليد النظيفة إذا ما تولى الأمور المالية ، وكان قليل العلم ، أمكنه سد هذا النقص بالاستعانة بذوي الخبرة ، أما الخيانة فخطرها على الأموال العامة أشد من أخطار الجهل .

وذلك ما أراد يوسف ـ عليه السلام ـ بإشراقة النبوة أن يلفت إليه نظر ولاة الأمور في اختيار عمالهم ، الذين يلون لهم أعمالاً تتعلق بأموال الأمة .

أفيكون بعد ذلك من الإنصاف في القول الزعمُ بأن الغرض من التقديم والتأخير مجرد رعاية الفواصل؟!!

تقديم القيود

ذكر سيبويه من تقديم الظرف للعناية قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص:٤) ثم قال : «وأهل الجفاء من العرب يقولون : ولم يكن كفوًا له أحد»[١]، فأومأ بذلك إلى أن الوقوع على أغراض التقديم بحاجة إلى رقة حس ، وصفاء طبع ، وأن إدراك المعاني اللطيفة المختبئة في أكسيتها من الألفاظ ، ومواكبة حركتها في مواقعها من النسق لا يتأتى لغير أصحاب الأذواق السليمة ، والأفهام الواعية ، لذلك كانت جفوة الطبع ، ونبوة الذوب سبب غياب سر التقديم عن جفاة الأعراب في الآية الكريمة .

والمتأمل لنظم الآية واحتمالات التقديم والتأخير فيها يتبدّى له ثلاث صور متغايرة في نسقها ودلالاتها ، أبلغها ما عليه النظم الحكيم .

الصورة الأولى : أن يأتي الترتيب على الأصل من تقديم الاسم على الخبر ، وتأخير الظرف عما تعلق به . فيقال : ولم يكن أحد كفوًا له ، ويكون الغرض حينئذ نفي وجود المكافئ .

والثانية : يتقدم فيها الخبر وما تعلق به من الظرف على الاسم ، فيقال : ولم يكن كفوًا له أحد ، كما كان الأعراب يقولون ، فيتسلط النفي على المكافأة والمساواة .

والثالثة : ما جاء به النظم الحكيم من تقديم الظرف على متعلقه ، وتقديمهما معًا على الاسم ، وفيه يكون نفي المكافأة والمساواة منصبًّا على الذات المقدسة ، ليشعر من أول الأمر بأنه تعالى ما لا يتصور له مكافئ ، وذلك ما قصد إليه النص القرآني ، وإلى ذلك أشار الزمخشري ، فقال : «هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه ، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف ، فكان لذلك أهم شيء وأعناه ، وأحقه بالتقدم وأحراه»[٢] .

---

(١) الكتاب ٥٦/١ .

(٢) الكشاف ٢٩٩/٤ .

في عبارة الزمخشري هذه هدم لهذا التقسيم الذي جرى عليه المفسرون وأهل البيان منهم ، بجعل التقديم لأحد غرضين : التخصيص أو الاهتمام ، وكأن أحدهما نقيض الآخر ، فتقديم الظرف[1] في الآية دال على التخصيص قطعًا ، ومع ذلك يرى الزمخشري أنه أفاد الاهتمام ، لأنه مصب الغرض ومركزه في نفي المكافأة عن ذات الله خصوصًا .

وقد سبق الدكتور أبو موسى إلى تجلية رأي الزمخشري في العلاقة بين الاهتمام والتخصيص حين رد على أبي حيان ، الذي ذهب إلى أن التقديم في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ للاهتمام وليس للتخصيص الذي قال به الزمخشري : «على أننا لا نرى في كلام سيبويه ما يعارض كلام الزمخشري ، لأن سيبويه يثبت العناية والاهتمام لدلالة صورة التقديم ، وهذه العناية لا تعني أن الصورة لا تفيد التخصيص ، لأنه لا منافاة بينهما ، ومن المقرر أن النكات لا تتزاحم وليس في كلام سيبويه ما يرفض دلالة الاختصاص ، كما أنه ليس في كلام الزمخشري ما يرفض دلالة العناية والاهتمام»[2] .

بل إنني أذهب إلى أن الزمخشري كان صريحًا في جعل التخصيص ضربًا من الاهتمام في كثير من النصوص ومنها هذا النص الذي نقلناه عنه .

وحين يقول ابن الصائغ وأبو حيان إن الظرف تقدم في هذه الآية لتحقيق التناسب في الفواصل فإن ذوبًا من إعجاز النظم يتفلت من الأذواق .

كما أن الوقوف في بيان الغرض من التقديم عند القول بالاختصاص ، أو الاهتمام دون البحث عن سر هذا الاهتمام والتخصيص ـ قصور عن استكشاف أسرار النظم .

ولنضرب لذلك مثلاً ما جاء في دعاء موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ (طه:٣٣-٣٥) .

---

(١) يطلق النحاة واللغويون اسم الظرف على ما يشمل المجرور كما هنا .

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٣٤٠ .

قال أبو السعود : إن تقديم المجرور ﴿ بِنَا ﴾ على متعلقه ﴿ بَصِيرًا ﴾ لمراعاة الفواصل[1] ، وكأنه رأى أن التخصيص لا يتأتى فيه ، لأن بصر الله ـ تعالى ـ لا يغيب عن شيء من خلقه ، فلا يصح حصره في المتكلم ، لكنك حين تنعم النظر ترى أن البصر الذي عناه موسى هو ما خصه الله به من العناية واللطف في كل أطوار حياته ، منذ تعلقت إرادة الله بوجوده ، إلى الوقت الذي صدح فيه بهذا الدعاء ، كما هو صريح قوله تعالى امتنانًا عليه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ فكان التقديم وحده هو الذي يظهر إحساس موسى بفضل الله عليه وما خصه به من الفضل المستوجب لعظيم الشكر والذكر .

ومثله ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٥١) ، فإن علم الله تعالى محيط بكل خلقه ، ولا سبيل إلى تخصيصه بخليله . فإذا دققت النظر في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ أدركت أن العلم الذي خص به إبراهيم ـ عليه السلام ـ مرتبط بمنحة النبوة ، وفيوضات الهدى التي غمر الله بها نبيه ، واختصاصه بمؤهلات الرسالة ، وعلمُ الله تعالى بصلاحية المرسل لتحملها وأدائها ، «الله أعلم حيث يجعل رسالته .

ذلك ما نجد ظلاله في قوله تعالى ممتنًّا على هذه الأمة بما يسَّره في شريعتها ، وفتح أمام مذنبيها أبواب التوبة بالإقلاع عن الذنب واستغفار الرب ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء:٢٨،٢٩) ، حيث يبدو أن تقديم المجرور ﴿ بِكُمْ ﴾ على ﴿ رَحِيمًا ﴾ للمحافظة على السجع ، لأن رحمة الله تظلل كل الأحياء من خلقه ، فلا مجال لحصرها في هذه الأمة ، فإذا ما قرأت قوله ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ ووضعته بإزاء قوله تعالى خطابا لبني

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/١٠ .

إسرائيل ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ موجبًا عليهم قتل النفس المذنبة ، تحقيقًا للتوبة أدركت سر تخصيص أمتنا بفيوضات رحمته حين جعل التوبة في الإقلاع عن الذنب ، والاستغفار منه ، وليس سوى التقديم ما يشعر بجلال هذه الرحمة فإذا أردت أن تصوغ ذلك في صورة قصر إضافي يقابل فيه بين يُسْر الشريعة في ديننا والكلفة والمشقة فيما أنزل على بني إسرائيل فقد وفيت حق الصناعة .

وتأمل معي كيف يشي تقديم اللفظ بما أسرَّته أخت موسى وبالغت في إخفائه وهي تقصه ، فيما حكاه الله تعالى : ﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١١ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ (القصص:١١،١٢) .

لم يستطع حذرها في قصه ، وفي عرضها على آل فرعون أن تدلهم على من يكفله ، لم يستطع إخفاء مشاعرها المتوهجة ، ولهفتها على أخيها ، فوشى لسانها بمكنون ضميرها ، حين قالت : ﴿ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ ، فأشعرت بتقديمها للمجرور ، وما يدل عليه من اختصاص نصحهم به ، أنهم أهله وذووه ، حتى شكّوا في أمرها ، وقالوا لها ما حكاه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه[1]؟

فلو أنها قالت : «وهم ناصحون له» لما كان هذا الشك ، لأن شأن المراضع من بني إسرائيل أن ينصحن لمن يرضعنه ، ابتغاء الحصول على الأجر ، وخاصة إذا كان الرضيع من بيت الملك ، أما أن يكون نصحهم خالصًا له على ما أفاده التقديم فذلك ما أثار الشك ، مما جعل أخت موسى تتخلص من ذلك بجعل الضمير في «له» للملك ، لا للطفل ، قائلة : «ما أردت إلا أنهم ناصحون للملك ، فتخلصت منهم بهذا التأويل» [2] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٨١/٣ .

(٢) المحرر الوجيز ١٤٩/١٢ .

ونقرأ قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ (الأحزاب:٢٦)، فيروعنا تقديم المفعول على فعل القتل وتأخيره عن فعل الأسر ، مع أن الغرض هو تفصيل المفعول وتقسيمه مما يقتضي تمام التناسب فيه أن يقدم في الجملتين ، مما دفع المفسرين إلى القول بأن التقديم لمراعاة الفاصلة .

وأرى ـ والله أعلم بما أراد ـ أن تقديم مفعول القتل ، وتأخير مفعول الأسر يلمح إلى أن هدف المؤمن الأول ، هو كسر شوكة عدوه ، والقضاء على كل وسائل مقاومته ، ولا يتحقق ذلك بغير القتل . أما الأسر فليس الغاية التي يتطلع إليها المقاتل المسلم ، خاصة بعد ذلك العتاب لنبي الله والمؤمنين في غزوة بدر على افتدائهم الأسرى ، فكان تقديم الأول وتأخير الثاني إشعاراً بالتفاوت بينهما في غايات المؤمن وأهدافه ، ثم إن هذه الآية نزلت في بني قريظة ، وقد حكم الله ـ تعالى ـ فيهم على لسان سعد بن معاذ بقتل الرجال وسبي العيال والذرية ، فكأن الفريق المقتول هو الذي من أجله تحركت جموع المسلمين ، وللقضاء عليه تلاقت قلوبهم وأهدافهم .

أغراض التقديم في القيود

قلت: إن القول بالتقديم فيها للتخصيص أو الاهتمام ليس كشفًا عن الغرض، ولا بيانا لسر التقديم ، فتخصيص الفعل وما في حكمه بقيد من القيود لابد أن يسوق إليه غرض من أغراض النظم يحتاج إلى الكشف عنه ، كما أن الاهتمام بالقيد وتقديمه يتطلب بيان الدافع إلى هذا الاهتمام ، ونحن حين ننتهي في بيان وجه البلاغة من التقديم عند القول بالاهتمام ، فإنما نرتد إلى عصر ما قبل عبد القاهر ، ونكون ممن عناهم بقوله : « وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال : (إنه قدم للعناية ، ولأن ذكره أهم)، ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم ، وهوّنوا الخطب فيه ، حتى إنك لترى أكثرهم

يرى تتبعه والنظر فيه ضربًا من التكلف . ولم نر ظنًّا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه »[1] .

هذا ما لم يتنبه له كثير من المفسرين حين يكتفون في تقديم القيود بالقول إنها قدمت للاهتمام أو للتخصيص ، لذلك سوف نتناول بعض الأغراض من تقديم القيود ، سواء منها ما قيل فيه بالاهتمام وما قيل فيه بالاختصاص .

زيادة التفريع :

من ذلك ما أشار إليه الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ (النحل:١٦) ، فالظاهر أن الاهتداء بالنجم ليس وقفا على المخاطبين من العرب ، كما أن النجم ليس وحده وسيلة الاهتداء ، فتقديم المسند إليه ، وتقديم القيد عليه مما لا يظهر وجه التخصيص فيه ، فكان الزمخشري سباقًا إلى الكشف عن وجهه : « فإن قلت : قوله ﴿ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ مخرج عن سنن الخطاب ، مقدم فيه النجم ، مقحم فيه (هم) كأنه قيل : وبالنجم خصوصًا هؤلاء خصوصًا يهتدون ، فمن المراد بهم؟ قلت : كأنه أراد قريشا ، كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم ، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم ، فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم فخصصوا »[2] .

التخصيص بتقديم النجم جار على سبيل التجوز ، بجعل كل ما عداه من وسائل الاهتداء في حكم المهمل ، تعظيمًا لهذه الآية من آيات الله في قوم من البدو كل وسائل علمهم ليلا تعتمد على النجوم ومطالعها ، وهم يقرون بأنها من خلق الله ، فجدير بهم أن يشكروا الخالق على نعمه العظيمة .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (العاديات:٦-٨) يقول الشهاب الخفاجي بيانًا للغرض من تقديم الجار والمجرور ﴿ لِرَبِّهِۦ ﴾ على متعلقه : « قدم للفاصلة ،

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠٨ .

(٢) الكشاف ٢/٤٠٥ .

لا للتخصيص» [1]، وكأنه يرد على قول الزمخشري : « إنه لنعمة ربه خصوصًا لشديد الكفران ، لأن تفريطه في شكر نعمة غير الله تفريط قريب ، لمقاربة النعمة ، لأن أجلَّ ما أنعم به على الإنسان من مثله نعمة أبويه ، ثم إن أعظمها في جنب أدنى نعمة الله قليلة ضئيلة»[2] ؛ فكفران نعمة الله في توجيه الزمخشري هو الكفران ، وما دونه لا يعتد به ، لما أن نعم غير الله بجانب نعمه لا تستحق الذكر ، فهو قصر مجازي أريد به تعظيم الكفر بنعم الله ، والتشنيع على الجاحدين بها . فالتخصيص هنا شبيه به في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا** ﴾ (فاطر:٢٨) في عدم الاعتداد بخشية من سواهم ، تعظيمًا لخشية العلماء؟

والشهاب حين ينكر دلالة التقديم على القصر إنما ينكر القصر التحقيقي لا المجازي ، ولعله يرى أن مقام الذم يقتضي تعميم الجحود والنكران لنعم الله ونعم عباده ، إلا أن الزمخشري كان أمسَّ رحمًا ببلاغة النظم الحكيم لأن مقام التشنيع على جحود نعم الله ـ تعالى ـ لا ينهض به غير عدم الاعتداد بكل جحود سواه . وقد مضت الآيات مؤكدة على هذه الغاية ، فقدم المجرور في الآيتين التاليتين : ﴿ **عَلَىٰ ذَٰلِكَ** ﴾ ﴿ **لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ** ﴾ حتى تكون شهادة الإنسان بنفسه على جحوده هي الشهادة لغرابتها ، وكأن كل شهادة سواها ليست بشهادة ، وهو ما يتلاءم مع صيغة المبالغة ﴿ **لَشَهِيدٌ** ﴾ التي أوثرت على اسم الفاعل « شاهد» ، كما اعتبر القرآن حبه للمال هو الحب الذي يتوارى خلفه كل حب ، فكشف التقديم عن هذه الغريزة المتسلطة على طبع البخيل والتي تجعل حبه للمال يغلب حبه لنفسه .

فالتخصيص هنا مجازي استدعاه مقام تعظيم الكفران بنعم الله ، والشح بما أفاء الله على عبده ليكون أداة نفع للناس .

---

(١) حاشية الشهاب ٣٩٢/٨ .

(٢) الكشاف ٢٧٨/٤ .

وهذا هو السر في تقديم المجرور من قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ (الأنبياء:٤٨-٥٠) .

تقديم المجرور في قوله ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ قصد به التشنيع على هؤلاء المشركين الذين خصوا الذكر المبارك ، المنزل على محمد ـ عليه السلام ـ بهذا الإنكار والجحود ، في حين أنهم لم ينكروا ما بين يدي أهل الكتاب من التوراة ، وكأنه يقول : ما أعجب أمركم أيها العرب ، وأنتم تقابلون بكل الإنكار ما أنزل الله على نبيكم ، ولا تنكرون ما أنزل من كتب على غيره من النبيين ، فلو أن ذلك الإنكار كان من أهل الكتاب لكان لهم عذرهم ، حسدًا وخوفًا على منزلتهم ، أما أنتم فإنكاركم لهذا الكتاب وحده أعجب العجب . ولعلك تشم رائحة التخصيص هذه جلية في تقديم الحديث عما أنزل على موسى وقرنه بما أنزل على محمد ، فكان التقديم لما أنكروه ملمحًا إلى أن منزل الكتابين هو الله ، والمنزل عليهما رسولان ، فكيف يُخَصُّ بالإنكار ما أنزل على محمد؟ وهذا من قبيل القصر الإضافي لزيادة التشنيع على المشركين وإبراز التناقض النفسي والفكري .

ولا يخفى عليك جمال النسق في الآيات حيث تتجاوب أطراف النظم ، فيأتي التقديم في فاصلة الآية السابقة ﴿ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ مجسدًا انشغال المؤمنين بها ، وداوم ذكرهم لها ، فهي ملء نفوسهم وقلوبهم ، لا تغيب عنهم طرفة عين ، حتى لكأنهم لا يخشون سواها مما تمتلئ به أذهان الناس ويشغلهم عن الآخرة والعمل لها . فقل إن شئت هو قصر مجازي يقصر فيه الخوف على الساعة وأهوالها ، واعتبار كل خوف لسواها كلا خوف . وهذا ما يذهب به القول بأن التقديم لتناسب الفواصل .

من زيادة التشنيع على غرار قوله ﴿ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (يونس:٥٩) ، حيث قدم المجرور على الفعل « تفترون » لجعل افترائهم على غير الله تعالى عدمًا بالقياس إلى افترائهم على ربهم . يقول أبو السعود : « فأظهر الاسم الجليل ، وقدَّم على الفعل ، دلالة على كمال قبح افترائهم ، وتأكيدًا للتبكيت إثر تأكيد ، مع مراعاة الفواصل »[1].

وهذا كلام جيد يجمع بين المضمون والشكل ، فيكشف عن الغرض المعنوي المتمثل في إبراز كمال قبحهم حين يخصون الله بالافتراء ، ويضم إليه جمال التناسب في المقاطع .

ومما تقدم فيه القيد لتفظيع الفعل والتشنيع على فاعله قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ (المطففين:٢٩،٣٠) ، فالسخرية أمر ممقوت في ذاته ، وحين تكون السخرية بمن شأنه الإجلال والتوقير فإنها تكون أشد مقتًا ، وتخصيصها بالمؤمنين الداعين إلى الخير ، الساعين في استنقاذ المستهزئ من إهلاك نفسه وإلقائها في النار أشد وأفظع ، فقد كان المجرمون الساخرون بالمؤمنين يلقون قرناءهم من المشركين بالتوقير والإكبار ، على ما يلمح إليه التقديم الذي جاراه النظم الحكيم في توعده للمستهزئين ، وتهديدهم بيوم يخصهم فيه المؤمنون بالاستهزاء ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ .

إنه القصاص العادل حين يسخر المؤمنون من هؤلاء الذين جعلوهم في الدنيا مادة تفكههم ، ولما كان شأن المؤمن ألا يسخر من أحد فإن الله ـ تعالى ـ جعل سخريتهم خاصة بهؤلاء المجرمين جزاء وفاقًا . وفي تقديم الحال ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ إلماح إلى أن نظرهم نظر سعادة ورضا بما منَّ الله تعالى عليهم .

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/٧١ .

ومما جاء التقديم فيه دالاً على كمال القبح والتشنيع على من يعدلون بربهم ما لا يخلق شيئًا وهم يخلقون ، قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام:١) فأظهر في مقام الإضمار ، وآثر وصف الرب بما يدل عليه من كمال الرحمة والرأفة ، وقدم على الفعل ليدل على شناعة ما ارتكبه الكافرون ، لما أن الشأن في طبائع الناس وعاداتهم ألا يسووا بين أربابهم وغيرهم ، حتى قيل إن كل فتاة بأبيها معجبة ، فهي لا تعدل به سواه ، فكيف والله ـ تعالى ـ فوق ذلك هو الخالق الرحيم لخلقه؟ ألا ترى كيف دل الإنكار بهذا التقديم منذ البداية أن الله ـ تعالى ـ خصوصًا ما كان ينبغي أن يقرن به سواه ، وأن هذا المساواة وإن كانت فظيعة في ذاتها فإن إيقاعها على ربهم خصوصًا أفظع وأشنع؟ حاول أن تقارن بين ما عليه النظم وبين أن تقول : «ثم الذين كفروا يعدلون بربهم»، لترى أن تسليط الإنكار على الفعل يذهب إنكارًا أشد حين يكون المعدول به خصوص ذات الباري . لعلنا لم نبعد كثيرًا عما ذكره القاسمي . «ووضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع والتقبيح والتقديم لمزيد الاهتمام ، والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد والمحافظة على الفواصل» [1] .

التشديد في الوعيد :

من التقديم للتهديد وإدخال الروع في قلوب المكذبين قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ (الحاقة:٣٠-٣٢) ، حيث قدم المفعول ﴿ ٱلْجَحِيمَ ﴾ وهي نار عظيمة ، ليكون أول ما يفجأ السمع ، ويثير الروع في قلوب الطغاة والمستكبرين ، فاجتمع لهذا التقديم المبادرة بذكر ما هو أشد العذاب لإدخال الروع في القلوب ، وجعل تصليتهم فيها خاصة ، ليقطع عليهم الرجاء في أن يخفف عنهم من عذابها في منازل أخرى من النار .

---

(١) محاسن التأويل ٦/٢٢٣٩ .

ثم جاء المسلوك فيه ، وهو السلسلة ، مضيًّا مع هذه الغاية من التخويف والتهديد ، لأنها أشد وأقسى ما يغلُّ به الكفار ، وكأنه يقول لهم : لا تغلوه في غير هذا النوع الفظيع من السلاسل . وذلك ما أشار إليه جار الله الزمخشري : « ثم لا تصلوه إلا الجحيم ، وهي النار العظمى ، لأنه كان سلطانًا يتعظم على الناس ، . . . والمعنى في تقديم السلسلة على السلك مثله في تقديم الجحيم على التَّصْلية ، أي لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة ، كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق »[1] .

هذا التخصيص الذي يملأ الجوانح رعبًا لم يرتضه صاحب المثل السائر غرضًا للتقديم ، وجعله متمحضًا للفضيلة السجعية ـ على حد تعبيره . يقول : « فإن تقديم الجحيم على التصلية ، وإن كان فيه تقديم المفعول على الفعل ، إلا أنه لم يكن هاهنا للاختصاص ، وإنما هو للفضيلة السجعية ، ولا مراء في أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن من أن لو قيل : خذوه فغلوه ، ثم صلوه الجحيم ، فإن قلت : إنما قدم الجحيم للاختصاص ، لأنها نار عظيمة ، لو أخرت لجاز وقوع الفعل على غيرها ، كما يقال : ضربت زيدًا ، وزيدًا ضربت ، وقد تقدم الكلام على ذلك . فالجواب عن ذلك أن الدرك الأسفل أعظم من الجحيم ، فكان ينبغي أن يخص بالذكر دون الجحيم على ما ذهب إليه ، لأنه أعظم »[2] .

وقد كفانا صاحب الفلك الدائر عناء الرد عليه ، فقال : « إن كان تقديم المفعول يقتضي الاختصاص كما قد قال قوم ، فلا مانع أن يكون الاختصاص مرادًا في قوله : ﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ لأن الجحيم والجاحم في اللغة هو أشد النار . قال أبو تمام :

إِنْ يَعْدُ مِنْ حَرهَا عَدْوَ الظَّلِيمِ فَقَدْ
أَوْسَعْتَ جِمَاحَهَا مِنْ كَثْرَةِ ٱلْحَطَبِ

---

(١) الكشاف ٤/٥٣-٤٤ .
(٢) المثل السائر ٢/٢١٣ .

ولا منافاة بين أن يراد الاختصاص ، وتراد الفضيلة السجعية»[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ (الغاشية:٢٣-٢٦) . وقد نبه فيه الزمخشري إلى الغرض من التخصيص بالتقديم ، فدل بذلك على أن التخصيص وسيلة من وسائل تحقيق أغراض النظم ، وليس هو الغاية التي ينتهي عندها الباحث عن بلاغة الكلام «فإن قلت : ما معنى تقديم الظرف؟ قلت : معناه التشديد في الوعيد ، وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام»[2] . فقد رفع القرآن نذر الوعيد بهذا الحصر وما يبثه في نفوس المنذرين من الفزع حين يعلمون أنهم لا يستطيعون الهروب من الله تعالى ولا يلوذون إلى ملجأ يحميهم من عقابه .

هذا التشديد في الوعيد كثيراً ما يصاحب تقديم القيود في النظم القرآني ، وهو أكثر ما يكون في تقديم المجرور على متعلقه ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ (العاديات:٩-١١) فدل تقديم ﴿ بِهِمْ ﴾ على هذه المراقبة الدائمة لمن كفر به ، تمهيداً لأخذه بسوء فعاله ، وكأن الله تعالى قد تفرغ لمراقبته وخصه بها دون خلقه ، وفي ذلك ما فيه من الوعيد الذي ترتعد له الفرائص ، وتنخلع له القلوب .

ومثله قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء:٩٤) ، فكان تقديم ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تعرية لهؤلاء الذين يدفعهم حب الدنيا والحرص

---

(١) الفلك الدائر على المثل السائر ٢٩٤/٤ .

(٢) الكشاف ٢٤٨/٤ .

على الغنائم إلى سفك دماء من أعلنوا الإسلام ، مدعين أن دافعهم إلى ذلك خشية أن يكون إلقاؤهم السلاح خداعًا ، كيف والله يحيط بسرائرهم وهم لا يغيبون عن عينه!! إن هذا التقديم ليقرع القلوب قبل الأسماع ، بما يثيره من الإيحاء باختصاصهم بمراقبته ، وكأنهم وحدهم أهل السوء من بين أهل الأرض جميعًا ، فهي مراقبة الغاضب المترقب ، لا مراقبة الراضي المصاحب .

وعليه جاء قوله تعالى : ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا** ﴾ (النساء:١٠٨) فكيف يظن المستخفي بخطاياه أن يفلت من العقاب والمؤاخذة ، والله تعالى معه يرقب سكناته وحركاته ، ويخص أعماله بهذه الإحاطة التي لا تغادر منها صغيرة ولا كبيرة؟! إن التقديم للمجرور ﴿ **بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾ يتعاون مع الجملة الحالية ﴿ **وَهُوَ مَعَهُمْ** ﴾ ـ وهي معية مراقبة وتهديد لا معية مصاحبة وتأييد ـ في نشر جو من الرعب وتوقع الانتقام ، يتلاءم مع ما يوحي به التخصيص من شدة المراقبة ، على معنى ﴿ **سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ** ﴾ وليس ذلك سوى تهديد بشدة الانتقام والتنكيل بمن لا يرعوي عن محادَّة الله وعصيانه .

التنبيه على خطر المقدم :

إذا أردت أن ترى كيف يسبغ القرآن على المقدم في سياقه ما يبرز أهميته ، ويلفت النظر إلى عظيم أثره في حياة الناس ، مما يتوارى معه كل أثر سواه ، فهذا قوله تعالى في حديثه عن خلق الأنعام وتسخيرها لمنفعة الإنسان : ﴿ **وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴾ (النحل:٥) فجعلها وحدها قوام حياة الناس ، ومنها وحدها يقتاتون . وفي مقابله وفي مجال التنويه بشأن ما يخرجه الله تعالى من نبات الأرض نجد قوله عز وجل : ﴿ **وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ** ﴾ (يس:٣٣) ، وفيه حصر ما يأكله الإنسان فيما تخرجه الأرض من زروع . فأنت

ترى الأكل محصوراً في الأنعام في موضع ، ثم تراه محصوراً في الحَبِّ في موضع آخر . فكيف تناول المفسرون سر التقديم في الآيتين؟

يقول البيضاوي في تفسيره للآية الأولى : « وتقديم الظرف للمحافظة على رءوس الآي ، أو لأن الأكل منها هو المعتاد المعتمد عليه في المعاش »[1].

ويقول في الآية الثانية : « قدم الصلة على أن الحَبّ معظم ما يؤكل ويعاش به »[2] .

وهكذا يجعل التقديم في الآيتين مفيداً للتخصيص ، ويفسره تفسيراً واحداً ، يذهب في كل منهما إلى أنه هو الأصل المعتمد عليه في المعاش ، ولعل ابتداءه بالمحافظة على رءوس الآي يوحي بميله إلى أنه الغرض الأصيل في التقديم . أما الدلالة على التخصيص فقد استمدها من الزمخشري .

وبالرجوع على الكشاف نجده يذكر في الآية الأولى وجهين في تفسير القصر . الأول : قصر إضافي على سبيل التجوز ، بجعل الأكل من الأنعام في مقابلة الأكل من الطيور والأسماك لعدم الاعتداد بها ، والثاني : يفسره بما يدل على القصر الحقيقي التحقيقي يقول : « فإن قلت : تقديم الظرف في قوله ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ مؤذن بالاختصاص ، وقد يؤكل من غيرها ، قلت : الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم . وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر ، فكغير المعتدِّ به ، وكالجاري مجرى التفكه . ويحتمل أن طعمتكم منها ، لأنكم تحرثون بالبقر ، فالحب والثمار التي تأكلونها منها ، وتكتسون بإكراء الإبل ، وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها »[3].

وفي الآية الثانية يفسر التخصيص بما يدل على القصر الحقيقي على سبيل التجوز ، فيقول : « تقديم الظرف للدلالة على أن الحَبَّ هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ، ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس ، وإذا قل جاء القحط ووقع الضر ، وإذا فُقِدَ جاء الهلاك ونزل البلاء »[4].

---

(١) تفسير البيضاوي ٣١٢/٥ .
(٢) المصدر السابق ٢٤٠/٧ .
(٣) الكشاف ٤١٠/٢ .
(٤) المصدر السابق ٢٢/٣ .

ليس فيما فسر به الزمخشري الاختصاص في الآيتين تناقض ، لأن السياق في الآيتين كان يتطلب المبالغة في عدم الاعتداد بما سوى المقدَّم تنبيهًا على خطره وبالغ أثره في حياة المخاطبين . فقد جاءت الآية الأولى في سياق الحديث عما سخره الله تعالى من الحيوان لمنفعة الإنسان ، سواء منها ما يسدُّ حاجته من الأكل وما ينتفع به في التنقل ، فجاء حصر الأكل في الأنعام كما جاء حصر الدفء فيها تنبيهًا على أهميتها البالغة وعظيم أثرها : ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل:٥-٧) .

أما الآية الثانية فقد جاءت في معرض التدليل على قدرة الله تعالى في الإحياء والإماتة ، وتوجيه نظر الإنسان المستبعد للإعادة بعد الموت ، إلى نموذج ماثل أمام عينيه يحيي فيه الله الأرض الميتة ، ويخرج منها ما تقوم عليه حياة الناس ، ولو أنها أمسكت ما في بطنها من النبات لهلك هؤلاء المكابرون جوعًا ، ألا ترى إلى سياق الآيات ، كيف يربط الله فيه بين موت الإنسان وبعثه ، وبين موت الأرض وإحيائها ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس:٣١-٣٥) .

إن هذا النموذج للإحياء بعد الموت الذي صدره الله تعالى بقوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ ليصل إلى كماله حين يتحول الميّت إلى مرحلة من الحياة يكون فيها هو المصدر الأصيل لحياة الإنسان ، حتى ليعد ما سواه من مصادر معاشه في حكم المعدوم الذي لا تتأثر به هذه الحياة ، هذا إلى أنه يمكن عده من القصر الحقيقي التحقيقي ، إذا اعتبرنا أن الأنعام ثمرة هذا النبات لاعتمادها عليه في غذائها . فلا يحقق هذا الغرض من الكشف عن كمال هذه النعمة وعظم أثرها

المستوجب لشكر المنعم إلا هذا التقديم ، فإذا صاحبه جمال الإيقاع في موسيقى الفواصل يكون قد اجتمع له الحسن من جميع أطرافه .

التقديم للترغيب :

مما تقدم فيه الظرف في مجال الحث على العمل الصالح والترغيب فيه قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران:٩٢) ، قدم الظرف ﴿ بِهِۦ ﴾ على صفة العلم ، تنبيهًا على أن الله يضع ما يقدمه الإنسان لربه موضعًا متميزًا يرقب معه نوايا المنفقين ، وطيب أنفسهم بما قدموا ، استثارة لطاقات الخير في أنفسهم ، وحثًّا لهم على تخير أطيب ما لديهم ليضعوا في يد الله من الصدقات ما هو أهل له ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا .

ولعل هذا هو السر أيضًا في تقديم المجرور من قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة:٣) . لقد دار جدل طويل حول تقديم ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ على فعله ، بين قائل بالتخصيص ، وآخر يقول بالاهتمام . وقد سبق أن قلت : إن التخصيص ضرب من الاهتمام وليس مقابلاً له ، وهذا ما يتضح من كلام الزمخشري : « وقدم مفعول الفعل[1]، دلالة على كونه أهم ، كأنه قال : ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به »[2]، فالاختصاص دليل الاهتمام ، وليس مقابلاً له في نظر الزمخشري ، وقد رفض كثير من المفسرين أن يكون التقديم دالا على الاختصاص ، معللين ذلك بأن كل ما ينفقه العبد هو مما رزقه الله ، فلا مجال فيه للتخصيص ، واكتفوا بأن يكون الغرض هو مجرد الاعتناء بشأن المقدم . يقول صاحب التحرير والتنوير : « وتقديم المجرور المعمول على عامله وهو ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ لمجرد الاهتمام بالرزق في عرف الناس ، فيكون في التقديم إيذان بأنهم ينفقون مع ما للرزق

---

(١) يقصد الجار والمجرور لأنه مفعول في المعنى .

(٢) الكشاف ١٣٢/١ .

من المعزة على النفس ، كقوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ مع رعي فواصل الآيات على حرف النون »[1].

أرى أن التخصيص الذي قال به الزمخشري لم يفهم على وجهه ، وأن الذين رفضوه لم يتبينوا ما رمى إليه من الدعوة إلى تخير الطيب الأجود من هذا الرزق . فالزمخشري من القائلين بأن الرزق هو المال الحلال ، على خلاف ما يقول به أهل السنة من أنه لا رازق إلا الله ، فجميع ما بيد العبد حلالاً أو حرامًا هو من رزق الله : يدل على ذلك قوله : « وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال الطلق الذي يستأهل أن يضاف إلى الله ويسمى رزقًا »[2].

فإذا كان ما رزقهم الله هو حلالاً طلقًا فاختصاص بعضه للإنفاق منه ، ذاهب إلى أن هؤلاء المؤمنين يتخيرون أطيب ما بأيديهم وأجوده ، فيخصونه بالإنفاق ، حرصًا منهم على نيل البر بالإنفاق مما يحبون ، وفي ذلك من الترغيب في إنفاق الجيد ما فيه .

التقديم للتعريض :

مما تقدم فيه المعمول للتعريض قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة:٤)، وهو وجه كان الزمخشري أول من قال به لتصحيح مذهبه في دلالة التقديم على التخصيص ، لأن تخصيص مؤمني هذه الأمة بالإيمان بالآخرة ، يناقضه ما هو ثابت من أن أهل الكتاب يؤمنون بها كذلك ، فكان لابد من تفسير لإخراجهم من دائرة المؤمنين بالآخرة ، واختصاص المسلمين بهذا الإيمان ، فكان جوابه : « وفي تقديم الآخرة ، وبناء ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ على ﴿ هُمْ ﴾ تعريض بأهل الكتاب وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته ، وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان ، وأن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك »[3] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٦/١ .
(٢) الكشاف ١٣٢/١ .
(٣) المصدر السابق ١٣٧/١ .

العدول عن التعبير بالإيمان إلى الإيقان هو الذي أوحى إلى الزمخشري بفكرته عن التعريض ، فالإيمان : الثقة ، وإظهار الخضوع وقبول الشريعة[1]، والإتقان : العلم بالشيء وتحققه[2]، فأهل الكتاب أظهروا الخضوع وعلموا بالآخرة ، ولكنهم لم يصلوا إلى مرحلة اليقين والتحقق مما علموه ، فكان إيمانهم على ألسنتهم أكثر مما هو في قلوبهم ، فلو أن إيمانهم هذا كان عن قناعة وتحقُّق لهداهم إلى الإيمان برسل الله جميعًا ، ولما فرقوا بين كتب الله ورسله .

لقد كان حس الزمخشري مرهفًا ، وتسمُّعه لهمس الكلمات دقيقًا ، وعينه بلمح إشارات السياق بصيرة ، فقد وقع قبل هذه الفاصلة ما يوطئ لهذا التعريض بأهل الكتاب ، وهو قوله تعالى ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ** ﴾ فإن فيه رائحة تعريض بإيمان أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليه ، فكان إيمانهم بالآخرة إيمانًا مشوهًا يلتبس فيه الحق بالباطل ، فلم يعتدَّ القرآن بهذا الإيمان ، لأنه ليس يقينًا . إنه قصر مجازي ينشر جوًّا من المبالغة في عدم الاعتداد بإيمان لا ينجي صاحبه حتى يحيله عدمًا محضًا .

إن هذا المعنى المتوهج يطفئه ما علل به المفسرون التقديم من مثل قول أبي حيان : « وقدم المجرور اعتناء به ، ولتطابق الآخر »[3].

على غرار هذه الآية جاء قوله تعالى فيما أمر المؤمنين أن يقولوه ردًّا على قول أهل الكتاب : ﴿ **كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ** ﴾ (البقرة:١٣٥) : ﴿ **صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ** ﴾ (البقرة:١٣٨،١٣٩) .

---

(١) القاموس المحيط مادة (أمن).
(٢) المصدر السابق مادة (يقن).
(٣) البحر المحيط ٤٢/١ .

فقدم المؤمنون في جوابهم المجرور «له» في الفاصلتين ، إشعاراً بأن عبادتهم لربهم عبادة خالصة من شوائب الشرك ، وإخلاصهم لربهم لا تكدره عقائد فاسدة من مثل قول اليهود ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ وقول النصارى ﴿ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ ، فكان حصر عبادتهم وإخلاصهم في ربهم تعريضًا بأهل الكتاب الذين يخلطون عبادتهم ودعواهم الإخلاص بما يبطلها من أسباب الشرك .

ومن خفي مواقع التعريض ، وهو ما جعله ابن الصائغ دليلاً على مخالفة الأصل[1] لتحقيق السجع ، قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ (سبأ:٤٠) ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ (يونس:٢٨) .

فتقدم المفعول ﴿ إِيَّاكُمْ ﴾ في سؤال الله تعالى من الآية الأولى ، و﴿ إِيَّانَا ﴾ في جواب الشركاء على فعل العبادة ، وكان الظاهر أن يقال : أهؤلاء كانوا يعبدونكم؟ وما كنتم تعبدوننا ، لأن نفي تخصيص العبادة لا ينفي أصلها ، واستنكار الله تعالى ، وكفرهم ، كان بالعبادة لا بتخصيصها ، وهذا هو الذي دفع ابن الصائغ وغيره إلى جعل التقديم للفاصلة .

لكننا حين نقرأ جواب الملائكة : ﴿ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ يظهر لنا سر التقديم وما صحبه من الاختصاص ، وهم أنهم لم يعبدوهم عن قناعة وفهم ، بل إنهم كانوا يستجيبون في عبادتهم لأهوائهم وما توسوس لهم به شياطينهم ، فهو ضرب من التعريض بكذبهم في دعواهم عبادة الملائكة ، وإنما كانوا يعبدون من أغووهم ، وهم مأمورون منهم بعبادة الملائكة ، خاضعون لسلطان شياطينهم ، فهم المعبودون بحق عندهم ، وهذا ما نبه إليه قول الزمخشري : « إنما كنتم تعبدون الشياطين ، حيث أمروكم أن تتخذوا لله أندادًا فأطعتموهم »[2] .

---

(١) الإتقان ٢/٩٩ .

(٢) الكشاف ٢/٢٣٥ .

وإنك لتلمح في تقرير الله للملائكة والشركاء المعبودين من دونه نذر الغضب والانتقام ، حين يعد هؤلاء الشركاء المعبودون عبادة المشركين لهم كلا عبادة ، لأنهم انطلقوا فيها من شياطينهم وأهوائهم ، فكيف يقبل الله تعالى عبادة رفض قبولها الملائكة والأصنام؟!! إنها صورة الشرك القبيحة الشائهة ترسمها الكلمات المعبرة عن معانيها بدقة في مواضعها من النظم الحكيم .

ومن التعريض بالمكذبين الذين أنكروا البعث ، والنعي على عقولهم ، قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ (الطارق:٥-٨) ، لما كان المستبعد بالنسبة إلى المخاطبين هو إعادة الخلق لا بَدْءَه ، لأن تكرار الخلق أمام أعينهم صيره عادة خفي معها عظيم الصنع لفتهم القرآن إلى النظر في مادة الخلق ، وهي أبعد ما تكون عما استحالت إليه في صورة إنسان بديع الخلق ، منبهًا إلى أن مَنْ شأنه أن يقدر على هذا البدء هو على ما دونه من الإعادة أقدر في حكم العقل ، فكان تقديم ﴿ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ ﴾ بما تضمنه من التخصيص نعيًا على عقول المشركين المستبعدين للإعادة خصوصًا ، مع إقرارهم بأن الله هو الذي خلقهم ، وفي ذلك من التعريض بعقولهم التي لم تدرك مثل هذه البدهيات التي لا تخفى على من لديه أدنى تعقل ـ ما فيه .

الدلالة على كمال الاستغراق :

قال تعالى في وصف أهل الجنة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢-٢٣) تقدم المجرور ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا ﴾ ليدل على كمال اللذة في نظر المؤمنين إلى ربهم ، واستغراقهم في أنواره ، ورغبتهم عن التحول إلى سواه ، وهو ما تشيعه دلالة التخصيص من قصر نظرهم على ربهم ، وهو لون من القصر المجازي الذي ينزل فيه النظر إلى غير الله من ألوان النعيم في الجنة منزلة المعدوم بالقياس إلى جلال ربهم الذي يستغرق الأنظار فلا ترى ما دونه ، إن أعظم ما يتمناه المؤمن في الجنة هو أن يرى ربه ، فإذا ما أنعم الله عليه بذلك عد كل ما رآه ويراه غير شيء ، وانظر كيف يتعانق هذا التخصيص مع التعبير عن الله بلفظ الرب وما ينشره على النظم من معاني الرضا وجلال الأنس .

إن تعليل المفسرين للتخصيص هنا باعتبار تقييده بوقت النظر ، لا في كل الأحوال[1] ، لا يعدو أن يكون تعليل صناعة يقصد به تصحيح صورة القصر ، حتى لا يقال : إن المؤمنين ينظرون في الجنة إلى أشياء كثيرة مما يسر العين ويمتعها ، فيجاب عليهم بأن هذا الحصر في لحظات النظر إلى الله لا في كل الأوقات وهو كما ترى يذهب بما كشفنا عنه من كمال الاستغراق في ذات الله ، وبما في القصر من التجوز بعدم الاعتداء بما سوى الله تعالى ، وذلك مما أجازه البلاغيون فيما يسمى بالقصر الادعائي .

والعجب مما قاله ابن الأثير وناقض فيه نفسه : «وقد استعمل تقديم الظرف في القرآن كثيراً ، كقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أي تنظر إلى ربها دون غيره ، فتقديم الظرف هاهنا ليس للاختصاص وإنما هو كالذي أشرت إليه في تقديم المفعول ، وأنه لم يقدم للاختصاص ، وإنما قدم من أجل نظم الكلام»[2]، فهو يفسر التقديم بما يدل على الاختصاص ، وعبارته : «أي تنظر إلى ربها دون غيره» قاطعة في الدلالة عليه ، ثم يعود فينفي صراحة أن يكون التقديم للاختصاص ، وإنما هو للمحافظة على السجع ، وكأن القول بالتخصيص يناقض ما يهدف إليه النظم الحكيم من الجمع بين تناسب المعاني وتناسب الألفاظ .

إن إعجاز القرآن يتجلى في هذه المواءمة الدقيقة بين جمال الشكل والمضمون ، ليتحقق بها التناسب بين الفواصل ، في نفس الوقت الذي يتحقق فيه التناسب بين المعاني .

فإذا نظرت إلى جمال الموسيقى النابع من التوازن بين المقاطع وتوافقها في الروي ، خِلْت أن القرآن عمد إليه وتوخاه ، وإذا تأملت المعاني والأغراض وجدت أنه أحكم نسق الألفاظ وفقًا لثوابت المعاني وحركتها في الأذهان ، فمن أي جانب نظرت وقعت على سر من أسرار الإعجاز .

* * *

(١) أنوار التنزيل ٢٨٣/٨ .

(٢) المثل السائر ٢١٧/٢، ٢١٨ .